

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢ - سُورَةُ يُوسُفَ

سميت به ، لأن معظم قصته مذكورة فيها ، ومعظم ما فيها قصته .
قال الشهاب : لما ختمت السورة التي قبلها بقوله (٢) : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الرُّسُلِ) ، ذكرت هذه بعدها ، لأنها من أنبيائهم . وقد ذكر أولاً ما لقي الأنبياء عليهم
السلام من قومهم ، وذكر في هذه ما لقي يوسف من إخوته ، ليعلم ما قاسوه من أذى الأجنبي
والأقارب ، فبينهما آتم المناسبة . والمقصود تسليمة النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب
والبعيد . انتهى .

و (يوسف) اسم عبراني ، تعريبه يزيد ، أو زيادة . وذلك لما روى أن أمه (راحيل)
كانت قدمت عن الحمل مدة ، ولحقها الحزن تلقاء ضراتها الوالدات . ولما وهبها تعالى ،
بعد سنين ، ولداً سمته (يوسف) وقالت : يزيدني به ربي ولداً آخر .

وهذه السورة مكية اتفاقاً ، وآيها مائة وإحدى عشرة بلا خلاف .

وقد روى البيهقي في (الدلائل) أن طائفة من اليهود ، حين سمعوا رسول الله ﷺ
يتلو هذه السورة ، أسلموا لموافقها ما عندهم .

(١) [١١ / هود / ١٢٠] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الرِّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

«الر» تقدم الكلام على مثله ، وأنها إما حروف مسرودة على نمط التمديد ، والإشارة في قوله : « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى آيات السورة ، نزل ما بعده ، لكونه مترقياً ، منزلة المتقدم . والإشارة بالبعيد لعظمته ، وبعد مرتبته . وإما اسم للسورة ، والإشارة في (تلك) إليها . والمراد بـ (الكتاب) السورة لأنه بمعنى المكتوب ، فيطلق عليها . أو القرآن ، لأنه كما يطلق على كله ، يطلق على بعضه . و (المبين) بمعنى الظاهر أمرها وإعجازها ، إن أخذ من (بان) لازماً بمعنى ظهر ؛ وإن أخذ من المتعدى فالمفعول مقدر ، أي أنها من عند الله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ » أي الكتاب المنعوت بما ذكر « قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أي لكي تفهموه ، وتحيطوا بمعانيه ، ولا يلتبس عليكم . كما قال تعالى ^(١) : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ) . أو لتستمعوا فيه عقولكم ، فعملوا أن اقتصاصه كذلك ، ممن لم يتعلم القصص ، معجز ، لا يمكن إلا بالإيجاز . أو (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) بإزاله عربياً ، ما تضمن من المعاني والأسرار ، التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات . وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم

(١) [٤١ / فصلت / ٤٤] .

بالنفوس . قال بعضهم : نزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل ، بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وفي أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فأكمل له الشرف من كل الوجوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾

« نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » أى أبدعه طريقة ، وأعجبه أسلوباً ، وأصدقه أخباراً ، وأجمه حكماً وعبراً « بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » أى بإحساننا إليك « هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » أى عنه ، لم يخطر ببالك . والتعبير عن عدم العلم بالفتلة لإجلال شأن النبي ﷺ . وقد جوز في هذا أن يكون مفعول نقص ، على أن (أحسن) نصب على المصدر . وأن يكون مفعول (أوحينا) على أن مفعول نقص (أحسن) أو محذوف . وأن يكون بدلاً من (ما) على أنها موصولة أو خبر محذوف كذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

« إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ » يعنى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام . والظرف بدل من المفعول قبله بدل اشتغال ، أو مفعول محذوف . « يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » إنما ناجى يوسف أباه بهذه الرؤيا ، لاعتقاده كمال علمه ، وشفقته عليه ، بحيث لو كانت رؤياه تسوءه لأمكنه صرفها عنه . قال القاشاني : هذه من المنامات التي تحتاج إلى تعبير ، لانتقال المتخيلة من النفوس

الشريفة التي عرض على النفس من الغيب سجودها له ، إلى الكواكب والشمس والقمر ، وما كانت في نفس الأمر إلا أبويه وإخوته . (يا أبت) أصله يا أباي ، فعوض عن الياء تاء التانيث لتناسبهما في الزيادة ، وكسرهما لأنه عوض عن حرف يناسبها . وقرئُ بفتحها لأنها حركة أصلها ، أو لأنه كان (يا أبتاً) فحذف الألف ، وبقى الفتححة . وقرئُ بالضم إجراء لها مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء ، من غير اعتبار التعويض . وقوله : (رأيتم) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها ، فلا تكرير : أو تأكيده للأولى تطرية لطول العهد ، كما في قوله ^(١) : (أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ) . وإنما أجريت مجرى العلاء في ضميرهم وجمع صفتهم جمعاً سالماً ، لوصفها بوصفهم ، وهو السجود . قال المهايغي : ولو صح كونها ناطقة فلا إشكال . قال : ولم أرَ مَنْ تعرض لهيأة السجود ، ولعله تحريك جانبها الأعلى إلى الأسفل ، مستديرة ظهرت أو مستطيلة اه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« قَالَ يَا بَنِيَّ » صغره لصغر سنه ، وللشفقة عليه ، ولعدوبة المصفر ، « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا » أي فيفعلوا الأجلك أو لإهلاكك تحيلاً عظيماً متلفاً لك . « إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » أي ظاهر العداوة ، فلا يألو جهداً في إغواء إخوتك وحملهم على ما لا خير فيه .

قال القاشاني : هذا النهي من الإلهامات الجملة ، فإنه قد يلوح صورة الغيب من المجرّدات الروحانية في الروح ، وبصل أثره إلى القلب ، ولا يتشخص في النفس مفصلاً ،

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٣٥] .

حتى يقع العلم به كما هو، فيقع في النفس منه خوف واحتراز إن كان مكروهاً ، وفرح وسرور إن كان مرغوباً . ويسمى هذا النوع من الإلهام، إنذارات وبشارات . نخاف ، عليه السلام ، من وقوع ما وقع قبل وقوعه، فنهاه عن إخبارهم برؤياه احترازاً ، ويجوز أن يكون احترازه كان من جهة دلالة الرؤيا على شرفه وكرامته ، وزيادة قدره على إخوته ، نخاف من حسدهم عليه عند شعورهم بذلك . انتهى .

تنبيه :

قال السيوطي في (الإكمال) . قال السكيا : هذا يدل على جواز ترك إظهار النعمة لمن يخشى منه حسد ومكروه .

وقال ابن العربي : فيه حكم بالمادة أن الإخوة والقرابة يحسدون . قال : وفيه أن يعقوب عرف تأويل الرؤيا ولم يبالي بذلك ، فإن الرجل يودّ أن يكون ولده خيراً منه ، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

وقال بعض المفسرين اليمانيين : قال الحاكم : هذا يدل على أنه يجب في بعض الأوقات إخفاء فضيلة، تخرزا من الحسود . وهذا داخل في قولنا : إن الحسن إذا كان سبباً للتبجح قبح . ومنه آية الأنعام^(١) : (وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدْوًا بَغِيرَ عِلْمٍ) وفي هذا ما ذكر عن زين العابدين :

إني لأكتم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا

الآيات المعروفة ، ذكرها عن زين العابدين ، الغزالي في (منهاج العابدين) والدليل في كتاب (التصفية) . وهذا يعقوب صلوات الله عليه أمر يوسف أن لا يقص رؤياه على إخوته ، والمعنى واحد ، فلا معنى لإنكار من ينسكروا بزعم أن العلم لا يحل كتمه . انتهى . ومقصوده أن خوف شر الأشرار من الصوارف عن الصدع بالحق .

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٨] .

قال السيد ابن المرتضى اليماني في (إيثار الحق) : مما زاد الحق عموضاً وخفاءً خوف العارفين ، مع قلتهم ، من علماء السوء ، وسلطين الجور ، وشياطين الخلق ، مع جواز التقيّة عند ذلك ، بنص القرآن ، وإجماع أهل الإسلام . وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، وما برح الحق عدواً لأن أكثر الخلق .

وذكر رحمه الله قبلُ في الاستدلال على التقيّة : أنه تعالى أنبى على مؤمن آل فرعون ، مع كتم إيمانه ، وسميت به سورة (المؤمن) . وصح أمر عمّار به ، وتقديره عليه ، ونزلت فيه ^(١) : (إِلَّا مَن أٰكْرَهٗ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ) . وقد صح عن أبي هريره ^(٢) أنه قال في ذلك العصر الأول : حفظت من رسول الله ﷺ وعابن ، أما أحدها فبثنته لكم ، وأما الآخر فلو بثنته لقطع هذا البلعوم . قال الغزالي في خطبة (المقصد الأسنى) : من خالط الخلق جدير بأنه يتحامى . لكن من أبصر الحق عسير عليه أن يتعاصى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيْكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِّنْ تَاْوِيْلِ الْاٰحَادِيْثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهٗ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ اٰلِ يٰعْقُوْبَ كَمَا اٰتَمَّهَا عَلٰى اَبْوِيْنِكَ مِّنْ قَبْلُ اِبْرٰهِيْمَ وَاِسْحٰقَ ، اِنَّ رَبَّكَ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ)

« وَكَذٰلِكَ يَجْتَبِيْكَ رَبُّكَ » أى مثل ذلك الاصطفاء ، بإراءة هذه الرؤيا العظيمة الشأن ، بصطفيك للنبوّة والسيادة « وَيُعَلِّمُكَ مِّنْ تَاْوِيْلِ الْاٰحَادِيْثِ » أى تعبیر المفامات ، وإنما سمى التعبیر تأويلاً ، لأنه جعل الرئي آيلاً إلى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ، وراجعاً إليه . والأحاديث اسم جمع للحديث ، سميت به الرؤيا لأنها إما حديث ملك أو نفس أو شيطان .

(١) [١٦ / النحل / ١٠٦] . (٢) أخرجه البخاري في : ٣ - كتاب العلم ،

٤٢ - باب حفظ العلم ، حديث رقم ١٠٣ .

« وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ » أى بما سيؤول إليه أمرك « وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ » وهم أهله من بنيه ، وحاشيتهم ، أى يسبغ نعمته عليهم بك « كَمَا أَنْعَمَهَا عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ » بمن هو مستحق للاجتباء « حَكِيمٌ » فى صنعه .

تنبهات :

الأول - قال أبو السعود ؛ كأن يعقوب عليه السلام أشار بقوله : (وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) إلى ما سيقع من يوسف عليه السلام ، من تعبيره لرؤيا صاحبي السجن ، ورؤيا الملك ، وكون ذلك ذريمة إلى ما يبلغه الله إليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها بإتمام النعمة . وإنما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحي . أو أراد كون هذه الخصلة سبباً لظهور أمره عليه السلام على الإطلاق ، فيجوز حينئذ أن تكون معرفته بطريق الفراسة ، والاستدلال من الشواهد والدلائل والأمارات والمخايل ، بأن من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا ، لا بد من توفيقه لتعبيرها ، وتأويل أمثالها ، وتمييز ما هو آفاق منها ، مما هو أنقى كيف لا ، وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال ، وقوة تصرفاتها فيه ، فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم ، وبما يحاكيه من الأمور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة ، وأقوى ووقفاً على النسب الواقعة بين الصور المعينة فى أحد ذينك العالمين ، وبين الكائنات الظاهرة على وفقها فى العالم الآخر . وإن هذا الشأن البديع ، لا بد أن يكون أنموذجاً لظهور أمر من اتصف به ، ومداراً لجرىان أحكامه ، فإن لكل نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة ، بها تظهر آثاره ، وتجربى أحكامه .

الثانى - استدل بالآية على أن (الجد) يطلق عليه اسم (الأب) ، فيدل أن من نسب رجلاً إلى جده وقال : (يا ابن فلان) ! أنه لا يكون قدفاً .

الثالث - قال المهايى : من فوائد هذا المقام استحباب كتمان السر ، وجواز التحذير

عن شخص بَمَيَّنِهِ ، ومدح الشخص في وجهه إذا لم يضره ، واعتبار السبب وإن لم يؤثر؛ وأن لكل حادث تأويل عند الأولياء، وأنه تعبر الرؤيا من الصغار ، وإن كان من عالم الخيال، إذ تصور المخيلة معاني معقولة ، بصور محسوسة ، فترسلها إلى الحس المشترك فيشاهدها . والصادقة منها ما تكون باتصال النفس عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يناسب المعاني ، فإن كانت شديدة المناسبة استغنت عن التعبير ، وإلا احتاجت إليه فأخبار عن هذه الرؤيا آية ، وعمما ترتب عليها آيات .

بحث في الرؤيا

قال الإمام الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة) في بحث (الفراسة) ما مثاله :
ومن الفراسة علم الرؤيا . وقد عظم الله تعالى أمرها في جميع الكتب المنزلة ، وقال (١)
لنبيه ﷺ: (وَمَا جَمَعْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) . وقال (٢) (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ ...) الآية - وقال (٣) في قصة إبراهيم: (يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)
وقوله (٤): (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) .

والرؤيا هي فعل النفس الناطقة ، ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لإيجاد هذه القوة في الإنسان فائدة . والله تعالى يتعالى عن الباطل . وهي ضربان : ضرب وهو الأكثر ، أضغاث أحلام وأحاديث النفس بالخواطر الرديئة ، لكون النفس في تلك الحال كالماء التموج ، لا يقبل صورة .

وضرب وهو الأفل ، صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج إلى تأويل ، ولذلك يحتاج المبر إلى مهارة ، يفرق بين الأضغاث وبين غيرها ، ولتمييز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ،

(١) [١٧ / الإسرائيليات / ٦٠] . (٢) [٨ / الأتقال / ٤٣] .

(٣) [٣٧ / الصافات / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٤] .

ويفرق بين طبقات الناس ، إذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا ، وفيهم من تصح رؤياه . ثم من صح له ذلك ، منهم من يرشح أن تلقى إليه في المنام الأشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك . ولهذا قال اليونانيون . يجب أن يشتغل العبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطعام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة . وقد قال عليه الصلاة والسلام^(١) : (الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) وهذا العلم يحتاج إلى مناسبة بين متحريه وبينه ، فرب حكيم لا يرزق حذقاً فيه ورب زر الحظ من الحكمة وسائر العلوم ، توجد له فيه قوة عجيبة . انتهى .

وقال الأستاذ ابن خلدون : حقيقة الرؤيا مطالمة النفس الناطقة ، في ذاتها الروحانية ، لمحمة من صور الواقعات . فإنها عند ما تكون روحانية تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية ، والمدارك البدنية . وقد يقع لها ذلك لمحمة بسبب النوم ، كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تشوف إليه من الأمور المستقبلية ، وتعود به إلى مداركها . فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً ، وغير جليّ بالمحاكاة ، والمثال في الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير . وقد يكون الاقتباس قوياً يستغنى فيه عن المحاكاة ، فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللمحة للنفس ، أنها ذات روحانية بالقوة ، مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تمقلاً محضاً وبكامل وجودها بالفعل ، فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شيء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها من الروحانيات دون نوع الملائكة ، أهل الأفق الأعلى ، على الذين لم يستكملوا ذاتهم بشيء من مدارك البدن ،

(١) أخرجه البخاري في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢ - باب رؤيا الصالحين ، حديث

٢٥٣٦ ونصه : عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح . . . » .

ولا غيره . فهذا الاستعداد حاصل لها ما دامت في البدن . ومنه خاص ، كالذى للأولياء .
 ومنه عامّ للبشر على العموم ، وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ
 من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات . ويخرج هذا الاستعداد فيهم
 متكرراً في حالات الوحي ، وهى عندما يمرج على المدارك البدنية ، ويقع فيها ما يقع من
 الإدراك ، شبيهاً بحال النوم شبيهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلاجل هذا
 الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) - وفي رواية
 (ثلاثة وأربعين) ، وفي رواية (سبعين) وليس العدد في جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد
 الكثرة في تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه ، وهو للتكثير عند
 العرب ، وما ذهب إليه بعضهم في رواية (ستة وأربعين) من أن الوحي كان في إنبقده
 بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ،
 فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين - فكلام بعيد من التحقيق . لأنه إنما وقع ذلك
 للنبي ﷺ . ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ؟ مع أن ذلك إنما يعطى
 نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ، ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين
 لك هذا مما ذكرناه أولاً ، علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر ،
 إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم ، صلوات الله عليهم ، إذ هو
 الاستعداد البعيد . وإن كان عامّاً في البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله
 بالفعل . ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب
 الحواس بالنوم ، الذى هو جبلى لهم ، ففتمرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف
 إليه في عالم الحق ، فتدرك بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب . ولذلك
 جعلها الشارع من المبشرات فقال^(١) : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات) ! قالوا : وما
 المبشرات يا رسول الله ! قال (الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل الصالح ، أو ترى له) .

(١) أخرجه البخارى في : ٩١ - كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث ٢٥٤١

وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم ، فعلى ما أصفها لك : وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف ، مركزه بالتجويف الأيسر من القلب - على ما فى كتب التشريح للجالينوس وغيره - وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق ، فيعطى الحس والحركة ، وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ ، فيعمل من برده ، وتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به ، لما اقتضته حكمة التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف . ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية ، صار محلاً لآثار الذات المباشرة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة ، وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطة .

وقد كنا قدّمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر وهو بالحواس الخمس ، وإدراك بالباطن وهو بالقوى الدماغية . وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية ، التى هى مستعدة له بالفطرة . ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية ، كانت معرضة للوسن والنسل ، بما يدركها من الثعب والكلاب ، وتفشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام ، لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة . وإنما يكون ذلك بانحناس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ، ورجوعه إلى الحس الباطن . ويعين على ذلك ما يفضى البدن من البرد بالليل ، فقطب الحرارة الغريزية أعماق البدن ، وتذهب من ظاهره إلى باطنه ، فتكون مشيمة مركبها ، وهو الروح الحيوانى ، إلى الباطن . ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل . فإذا انحنس الروح عن الحواس الظاهرة ، ورجع إلى القوى الباطنة ، وختت عن النفس شواغل الحس وموانه ، ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة ، تمثل منها بالتركيب والتحليل صورة خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة ، لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً . ثم ينزلها الحس المشترك ، الذى هو جامع الحواس الظاهرة ، فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة .

وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية ، مع منازعتها القوى الباطنية ، فتدرك يادرا كما الروحانيّ ، لأنها مبطورة عليه . وتقتبس من صور الأشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة ، فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب الموهودة . والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير ، وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور المحافظة ، قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هي - أضغاث أحلام .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال ^(١) : (الرؤيا ثلاث : رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان) وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان ، لأنها كلها باطل ، والشيطان ينبوع الباطل . هذه حقيقة الرؤيا ، وما يسببها وبشيمها من النوم . وهي خواص للنفس الإنسانية ، موجودة في البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم ، بل كل واحد من الإنسان رأى في نومه ما صدر له في يقظته ، مراراً غير واحدة ، وحصل له القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ، ولا يد . وإذا جاز ذلك في عالم النوم ، فلا يمتنع في غيره من الأحوال ، لأن الذات المدركة واحدة ، وخواصها عامة في كل حال . انتهى .

وذكر رحمه الله عند بحث (علم تعبیر الرؤيا) أن التعبير لها كان موجوداً في السلف ، كما هو في الخلف ، وأن يوسف الصديق ، صلوات الله عليه ، كان يميز الرؤيا ، كما وقع في القرآن ، وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، وعن أبي بكر رضي الله عنه . والرؤيا مدرك من مدارك الغيب كما تقدم . وأما معنى التعبير ، فاعلم أن الروح العقليّ ، إذا أدرك مدركة ، وألقاه إلى الخيال فصوره ، فإنما يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بمض الشيء . ومن المرئيّ ما يكون صريحاً لا يفتقر إلى تعبير ، لجلائها ووضوحها ، أو اقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه . وللبحث تمة سابقة ، انظرها تمة .

(١) أخرجه البخاريّ عن أبي هريرة في : ٩١ - كتاب التعبير ، ٢٦ - باب القيد في

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ » أى فى قصتهم وحديثهم « آيَاتٌ » أى دلائل على قدرته تعالى ، وحكمته فى كل شىء « لِلِّسَّائِلِينَ » أى لمن سأل عن نبئهم . أو آيات على نبوته صلوات الله عليه ، لمن سأل عن نبئهم ، فأخبرهم بالصحة من غير تلقٍ عن بشر أو أخذٍ عن كتاب .

وقال القاشانى : أى آيات معظمت لمن يسأل عن قصتهم ويعرفها ، تدلهم أولاً على أن الاصطفاء المحض أمر مخصوص بمشيئة الله تعالى ، لا يتعلق بسعى ساعٍ ، ولا إرادة مريدٍ ، فيملكون مراتب الاستعدادات فى الأزل .

وثانياً : على أن من أراد الله به خيراً ، لم يمكن لأحد دفعه . ومن عصمه الله ، لم يمكن لأحد رميه بسوء ، ولا قصده بشرٌ ، فيقوى بقيمتهم وتوكلهم .

وثالثاً : على أن كيد الشيطان وإغواءه أمر لا يأمن منه أحد ، حتى الأنبياء ، فيكونون منه على حذر . وأقوى من ذلك كله أنها تطلعهم من طريق الفهم ، الذى هو الانتقال الذهنى ، على أحوالهم فى البداية والنهاية ، وما بينهما ، وكيفية سلوكهم إلى الله ، فتشير شوقهم وإرادتهم ، وتشجذ بصيرتهم ، وتقوى عزيمتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ » وهو بنيامين شقيقه ، وأمهما راحيل بنت لابان ، خال يعقوب . « أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ » أى والحال أنا جماعة أقرباء ، أحق بالحبة

من صغيرين ، لا كفاية فيهما . والعصبة والعصابة : الجماعة من الرجال - عشرة فصاعداً - سموا بذلك لكون الأمور تعصب بهم ، أى تشد فتقوى . وذكرها ليس لإفادة المدد فقط ، بل للإشعار بالقوة ، ليكون أدخل في الإنكار ، لأنهم قادرون على خدمته ، والجد في منفعته فكيف يؤثر عليهم من لا يقدر على ذلك ؟ .

«إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» أى ذهب عن طريق الصواب في ذلك لتفضيله المفضل بزعمهم . وغاب عنهم أنه كان يجب يوسف لما يرى فيه من الخبايل ، لا سيما بعد تلك الرؤيا . وبنيامين لكونه شقيقه وأصغرهم . ومن المعروف زيادة الميل لأصغر البنين . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجهُ أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين)

«اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً» من مقول قولهم المحكى قبل . وإنما قالوا هذا لأن خبر المنام بلغهم . وروى أنه قصه عليهم ، فتشاوروا في كيد ، وقالوا ذلك ، وقالوا : لنرى بعد ما يكون من أحلامه ، سخرية واستمراء . وتفكير (أرضاً) وإخلاقها من الوصف ، للإيهام . أى في أرض مجهولة ، لا يعرفها الأب ، ولا يمكن ليوسف أن يعرف طريق الوصول إليه .

وقوله : «يخل لكم وجهُ أبيكم» جواب الأمر ، كناية عن خلوص محبته لهم ، لأنه بدل على إقباله عليهم بكليته ، وعلى فراغه عن الشغل بيوسف ، فيشتغل بهم . «وتكونوا من بعده» أى من بعد الفراغ من قتله أو طرحه «قومًا صالحين» أى تائبين إلى الله عما جنيتهم ، فيكون صلاحكم فداءً عن معصية قتله أو طرحه . أو تصلح دنياكم ، وتنظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم .

تنبيهات :

الأول - قال ابن إسحاق : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير ، الذي لا ذنب له ، وبالكبير الفاني ، ذى الحق والحرمة والفضل ، والده ، ليفرقوا بينه وبين ابنه على صغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه . يغفر الله لهم !

الثاني - قال ابن كثير : اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف : وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك . ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بمد ذلك ، وفي هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى ^(١) : (قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ) وهذا فيه احتمال ، لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللمعجم شعوب . يذكّر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف . ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)

« قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ » أى صريحاً ورضى به الباقون « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ » أى لأن القتل من الكبائر التى يخاف معها سد باب الصلاح . وإنما أظهره فى مكان الإضرار استجلاباً لشفتهم عليه ، أو استعظاماً لقتله . « وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ » أى فى غوره . و (الجب) : البئر التى لا حجارة فيها . « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى بعض الأتوم الذين يسرون

(١) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

في الأرض، فيتملكه، فلا يمكنه الرجوع إلى أبيه، فيحصل مطلوبكم من غير ارتكاب كبيرة يخاف ممها سدّ باب الصلاح .

« إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » أى عازمين مصريّن على أن تفرقوا بينه وبين أبيه . وقد روى أن القائل هو أخوهم الأكبر ، بكر يعقوب (رؤو بين) .
ولما تواطوا على رأيه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ)

« قَالُوا » أى لأبيهم « يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ » أى لم نخافنا عليه ، ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ أرادوا بذلك استنزاله عن عادته في حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسنّ منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه - كذا في الكشاف - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

« أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (الرتع) : الأكل والشرب ، والسمي والنشاط ، حيث يكون الخضر والمياه والزروع . يريدون : أن إلزامك إياه أن يكون بمكانك ، موجب لملايه القاطع انشاطه على العبادة ، واكتساب الكمالات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ »

يعنى : وإن زعمتم أنكم له حافظون ، فحفظكم إنما يكون ما دمتم ناظرين إليه ، لكن لا يخلو الإنسان عن الغفلة ، فأخاف غفلتكم عنه .

قال الزمخشريّ : اعتذر إليهم بشيئين :

أحدها : أن ذهابهم به ، ومفارقتة إياه ، مما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه ، برعيهم ولعبهم ، أو قلّ به اهتمامهم ،

ولم تصدق بحفظه عنايتهم .

قال الناصر : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما

حزنه لمفارقتة ربها يرتع ويلعب ويعود سالماً إليه عما قليل ، فأمر سهل . فكأنهم لم يشتغلوا

إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه . انتهى - أي فيما حكى عنهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَائِرُونَ)

« قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » أي جماعة أقوياء ، يمكننا أن نزرعه من

يد الذئب « إِنَّا إِذًا لَخَائِرُونَ » أي هالكون ضعفاً وجبناً . أو عاجزون ، أو مستحقون

لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْمَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

لَتَنبَأَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ » أي بعد مراجعة أبيهم في شأنه « وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْمَلُوهُ فِي غِيَابَةِ

الْجُبِّ » فيه تعظيم لما أزمعوا ، إذ أخذوه ليكرموه ، ويدخلوا السرور على أبيه ، ومكروا

مامكروا . « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَنبَأَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا » أي أعلمناه بإلتقاء في روعه ،

أو بواسطة ملك عند ذلك تبشيراً له ، بأنك ستخلص مما أنت فيه ، وتحدثهم بما فعلوا بك .

وقوله : « وَهُمْ لَا يَشْمُرُونَ » إما متعلق بـ (أوحينا) أى أوحينا إليه ذلك وهم لا يشمرون ، إيناساً له ، وإزالة للوحشة؛ أو حل من الماء في (لتنبئهم) ، أى : لتحدثهم بذلك ، وهم لا يشمرون أنك يوسف ، لعلوا شأنك ، كما سيأتى في قوله تعالى^(١) : (فَمَرَرَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) .

روى أنهم نزعوا قميص يوسف الموشى الذى عليه ، وأخذوه ، وطرحوه في البئر ، وكانت فارغة لا ماء بها ، وجلسوا بعدد ، يأكلون ويلهون إلى السماء .
وجواب (لما) في الآية محذوف ، مثل فعلوا ما فعلوا ، أو طرحوه فيها . وقيل : الجواب (أوحينا) والواو زائدة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ)

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » بيان لكرهم بأبيهم بطريق الاعتذار الموهوم موته القاطع عنه متمناه ، لقطع محبته عنه ، ولو بعد حين ، فيرجع إليهم بالحب الكلى . وقدموا عشاء لكونه وقت الظلمة المانعة من احتشامه في الاعتذار الكذب ، ومن تفرسه من وجوههم الكذب . وأوهموا ، يبكأهم وتفجعهم عليه ، إفراط محبتهم له المانعة من الجرأة عليه . ثم نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم ، فيترك غضبه عليهم ، الداعى إلى تكذيبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ)

« قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » أى في العدو والرمى بالنصل « وَتَرَكْنَا يُوسُفَ

(١) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

عِنْدَ مَتَاعِنَا « أَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنَ الثِّيَابِ وَالْأَزْوَادِ وَغَيْرِهَا لِيَحْفَظَهُ » فَأَكْمَلَهُ الذُّنْبُ « أَى كَمَا حَذَرْتَ .

وقوله تعالى: « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ » تَلَطَّفَ عَظِيمٌ فِي تَقْرِيرِ مَا يَحَاوِلُونَهُ . يَقُولُونَ : وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَصْدَقُنَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَلَوْ كُنَّا عِنْدَكَ صَادِقِينَ ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تَتَّهَمُنَا ، وَغَيْرِ وَائِقٍ بِقَوْلِنَا ؟ .

وقد استفيد من الآية أحكام :

منها : أن بكاء المرء لا يدل على صدقه ، لا حتمال أن يكون تصنعاً - نقله ابن العربي - .
ومنها : مشروعية المسابقة . وفيه من الطب رياضة النفس والدواب ، وتمرين الأعضاء

على التصرف - كذا في الإكمال - .

قال بعض اليمانيين : اللبب إن كان بين الصغار جاز بما لا مفسدة فيه ، ولا تشبه بالفسقة .

وأما بين الكبار ، ففيه ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون في معنى القمار ، فلا يجوز .

الثاني : أن لا يكون في معناه ، وفيه استعانة وحث على القوة والجهاد ، كالنضال بالقسى ،

والمسابقة على الخيل ، فذلك جائز وفاقاً .

الثالث : أن لا يكون فيه عوض كالمصارعة ونحوها . ففي ذلك قولان للشافعية . رجح

الجواز ، إن كان بغير عوض ، أو بعوض يكون دفعه على سبيل الرضا ، لأنه رَبِّهِ (١) صارح

يزيد بن ركانة .

وروى أن عائشة قالت (٢) : سأبت رسول الله ﷺ مرتين ، فسبقته في المرة الأولى ،

فلما بدنتُ سبقتي وقال : هذه بتلك .

وفي الحديث (٣) : ليس من الله ثلاث : ملاعبة الرجل أهله ، وتأديبه فرسه ، ورميه بقوسه . انتهى .

(١) أخرجه أبو داود في : ٣١ - كتاب اللباس ، ٢١ - باب في المأثم ، حديث ٤٠٧٨

(٢) أخرجه ابن ماجة في : ٩ - كتاب النكاح ، ٥٠ - باب حسن معاشررة النساء ، حديث

رقم ١٩٧٩ (طبعنا) . (٣) أخرجه أبو داود ، من حديث طويل ، عن عقبه بن عامر ،

في : ١٥ - كتاب الجهاد ، ٢٣ - باب في الرمي ، حديث رقم ٢٥١٣ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَجَاءُوا عَلَىٰ قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ)

« وَجَاءُوا عَلَىٰ قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » بيان لما تأمروا عليه من المكيدة، وهو أنهم أخذوا فيصه الموشى ، وغسوه في دم مَعِيْزٍ كانوا ذبحوه . و (كذب) مصدر بتقدير مضاف ، أى : ذى كذب . أو وصف به مبالغة ، كرجل عدل . و (على) ظرف لـ (جاءوا) مشعر بتضمنه معنى (افتروا) .

وقوله : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » أى من تعيب يوسف ، وتفريقه عنى ، والاعتذار الكاذب .

قال الناصر : وقواه على آتهمهم ، أنهم ادعوا الوجه الخاص الذى خاف يعقوب ، عليه السلام ، هلاكه بسببه أولاً ، وهو أكل الذئب ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّئْبُ) ، وكثيراً ما تنفق الأعداء الباطلة ، من قلق فى المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بمض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار . انتهى .

وفى (الإكمال) : استنبط ، من هذا ، الحكم بالأمارات ، والنظر إلى التهمة ، حيث قال : (بَلْ سَوَّلَتْ . . .) الآية .

لطائف :

قال المهايى : فى الآية من الفوائد أن الجاه يدعو إلى الحسد ، كلال ، وهو يمنع من المحبة الأصلية من القرابة ونحوها ، بل يجعل عداوتهم أشد من عداوة الأجانب . وأن الحسد يدعو إلى السكر بالحسود ، وبمن يراعيه ، وأنه إنما يكون برؤية الماكر نفسه أكل عقلاً من المكور به . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، بل أظهره فعلاً ، لم يعتمد عليه .

وكذا من أظهر الأمانة قولاً وفعلًا يفعل الحيانة . وأن الإذلال والإعزاز بيد الله ، لا الخلق . وأن من طلب مراده بمصيبة الله بعد عنه . وأن الخوف من الخلق يورث البلاء ، وأن الإنسان ، وإن كان نبياً ، يُخلق أولاً على طبع البشرية . وأن اتباع الشهوات يورث الحزن الطويل . وأن القدر كائن . وأن الحذر لا يغنى عن القدر .

قيل للهدد : كيف ترى الماء تحت الأرض ، ولا ترى الشبكة فوقها ؟ قال : إذا جاء القضاء عمى البصر .

(والتسويل) تزيين النفس للمرء ما يحرص عليه ، وتصوير القبيح بصورة الحسن . « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » (صبر) خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفاً ، أى فشأنى صبر جميل . أو فصدر جميل أجمل . والصبر قوة للنفس على احتمال الآلام كالمصائب إذا عرضت ، والجميل منه هو ما لا شكوى فيه إلى الخلق ولا جزع ، رضا بقضاء الله ، ووقوفاً مع مقتضى العبودية .

« وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ » أى المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف - كذا قدروه - وحقق أبو السمود ؛ أن المعنى على إظهار حال ما تصفون ، وبيان كونه كذباً ، وإظهار سلامته ، فإنه علمٌ في الكذب . قال سبحانه^(١) : (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ) وهو الأليق بما سيجيء من قوله تعالى^(٢) : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا » وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف ، والصبر على الرزء فيه - ياباه تكذيبه عليه السلام لهم في ذلك ، ولا تساعده الصيفة ، فإنها قد غلبت في وصف الشيء بما ليس فيه ، كما أشير إليه . انتهى .

وفي قوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) اعتراف بأن تلبسه بالصبر لا يكون إلا بمعونته تعالى . قال الرازى : لأن الدواعى النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع ، وهى قوية . والدواعى الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا . فكأنهما في تحارب وتجالد . فما لم تحصل إعانتة تعالى ،

(١) [٣٧ / الصافات / ١٨٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٨ و ٨٣] .

لم تحصل الغلبة . فقوله : (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) يجرى مجرى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) . وقوله : (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ) يجرى مجرى قوله : (وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . انتهى .
ثم ذكر تعالى ما جرى على يوسف في الجب ، بعد ما تقدم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ ،
وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ)

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ » أى الذى يرد الماء ويستقى لهم « فَأَدْلَى دَلْوَهُ »
أى أرسلها فى الجب ليملاها ، فتملق بها يوسف للخروج ، فلما رآه « قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا
غَلَامٌ » وقرئ (يَا بُشْرَى) بالإضافة والمنادى محذوف . أو نزلت منزلة من ينادى .
ويقال : إن هذه الكلمة تستعمل للتبشير من غير قصد إلى النداء .

قال الزجاج : معنى النداء فى هذه الأشياء التى لا تجيب هو تنبيه المخاطبين ، وتوكيد
القصة . فإذا قلت : يا عجباه ! فكأنك قلت : اعجبوا .

و (الغلام) : الطائر الشارب . أو من ولادته إلى أن يشب . والتنوين للتعظيم .
« وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً » أى أخفوه متاعاً للتجارة . ف (بضاعة) حال . وفى (الفرائد) :
أنه ضمن (أسْرُوهُ) معنى (جَمَلُوهُ) أى جملوه بضاعة مسرين ، فهو مفعول به ، أو
مفعول له . أى : لأجل التجارة . و (البضاعة) من البضع ، وهو القطع لأنه قطعة
وافرة من المال تقضى للتجارة : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)
« وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » الضمير

في (أَسْرَوْهُ) و(شَرَوْهُ) للسيارة، لأنها بمعنى القوم السائرين. وقد روى أنهم كانوا تجار من بلدة مدين، فلما أصعدوا ردهم يوسف، وضموه إلى بضاعتهم، باعوه لقافلة مرت بهم سائرة إلى مصر بعشرين ذهما من الفضة، ثم أتوا بيوسف إلى مصر. و (درهم) بدل من الثمن. و (المدود)، كناية عن القليل، لأن الكثير يوزن عندهم. و (الزهد) فيه بمعنى الرغبة عنه.

فوائد:

قال في (الإكليل) ، استنبط الناس من هذه الآية أحكام اللقيط ، فأخذوا منها أن اللقيط يؤخذ ولا يترك . ومن قوله : (هذا غلام) أنه كان صغيراً ، وأن الالتقاط خاص به ، فلا يلتقط الكبير . وكذا قوله (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّيْبُ) لأن ذلك أمر يختص بالصغار . ومن قوله : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ) أن اللقيط يحكم بحريته . وأن ثمن الحر حرام . قال بعضهم : وجه الاستدلال أنهم باعوه بثمن حقير لكونه لقطياً ، وهو لا يملك ، إذ لو ملك استوفوا ثمنه .

قال بمض الزيدية ، ورد هذا الاستدلال بأن فعلهم ليس شريعة . وأما الآن فلا شبهة أن ظاهر اللقيط الحرية ، كما أن ظاهره الإسلام . هـ .

قال المهايغي : ومن الفوائد أن الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب . وأنه ينتظر للشدة . وأن من خرج لطلب شيء قد يجد ما لم يكن في خاطره . وأن الشيء الخطير قد يعرض فيه ما يهونه . وأن البشري قد يعقبها الحزن ، والعزة قد يعقبها الذلة ، وبالعكس . هـ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَالْكَثِيرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)
 « وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »
 يخبر تعالى عن لطفه بيوسف ، إذ يسر له من اشتراه في مصر ، فاعتق به ، وأوصى أهله ، وتوسم فيه الخير والصلاح . ومعنى (أَكْرِمِي مَثْوَاهُ) اجعلي مقامه حسناً مرضياً . (والثوى) محل الثواء ، وهو الإقامة .

قال الشهاب : وإكرامُ مَثْوَاهُ كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتمه ، لأن من أكرم المحل بإحسان الأسرة ، واتخاذ الفراش ونحوه ، فقد أكرم ضيفه بسائر ما يكرم به . أو (الثوى) مقصم . كما يقال : المقام السامى .

روى أن القافلة لما نزلت مصر اشتراه منهم رئيس الشرط عند ملك مصر ، فأقام في بيت سيده ، والعناية الربانية تحفه ، والنجاح يحوطه . فكان يرى سيده أن كل ما يأتي به ينجحه الله تعالى على يده ، فنال حظوة لديه ، وأقامه قيماً على كل ما بملكه ، وضاعف تعالى البركة في زرعه وماله وحوزته .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى كما جعلنا له مَثْوَى كريمة في منزل العزيز وقلبه . جعلنا له تصرفاً بالأمر والنهي ، ومكانة رفيعة في أرض مصر ، ووجاهة في أهلها ، ومحبة في قلوبهم ، ليكون عاقبة ذلك تعليمه تأويل الرؤيا التي ستقع من الملك ، وتفضى بيوسف إلى الرياسة العظمى .

« وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » أى لا يُمْتَنَعُ عما يشاء ، ولا يُبْتَازَعُ فيما يريد . أو على أمر يوسف ، أريد به من الفتنة ما أريد غير مرة ، فلم يكن إلا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة .

« وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن الأمر كله بيده ، فيأتون ويذرون زعماً أن لهم شيئاً من الأمر . أو لا يعلمون لطائف صنعه ، وخفايا لطفه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)
 « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » هذه الآية كالتى قبلها ، تخللت تضاعيف نظم القصة لمعى بديع ، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف ، وثمرات مجاهداته ، وعجائب صنع الله تعالى فى مراداته ، إذ طوى له المنح فى تلك المحن ، وذخر له السيادة فى تلك العبودية . ومعنى (بَلَغَ أَشُدَّهُ) أى زمان اشتداد جسمه وقوته .

قال أبو عبيدة : العرب تقول : بلغ فلان أشده ، إذا انتهى منتهاه فى شبابه وقوته قبل أن يأخذ فى النقصان . و (الحكم) إما الحكمة ، وهو العلم المؤيد بالمعمل ، أو الحكم بين الناس . قال الزمخشري : وفى قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) تنبيه على أنه كان حسناً فى عمله ، متقياً فى عنفوان أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه فى شبابه ، آتاه الله الحكمة فى اكتماله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي يَدَيْهَا عَنِ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)
 « وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي يَدَيْهَا عَنِ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » هذا رجوع إلى شرح ماجرى على يوسف فى منزل العزيز يمد ما أمر امرأته بإكرام مثواه ، من مراودتها له وإيائه .

والمرادة : المطالبة . أى : طلبت منه أن يواقعها . وتمديتها بـ (عن) لتضمينها معنى المخادعة .
والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر والستر . وإيراد الوصول دون امرأة العزيز ،
لتقرير المرادة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك . قيل لامرأة : ما حملك على ما لا خير
فيه ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام - كما سيأتى - .
(هَيْتَ) قرئ كـ (لَيْتَ وَقِيلَ وَحَيْثُ) ، وبكسر الهاء وبهمزة ساكنة بعدها ،
وفتح التاء وضمتها . وهى فى هذه اللغات اسم فعل بمعنى (تعال) . واللام لتبيين المفعول
أى المخاطب . ونقل عن الفراء أنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها .
قال ابن الأبيارى : هذا وفاقٌ بين لغة قريش وأهل حوران ، كما اتفقت لغة العرب
والروم فى (القسطاس) ونحوه .

و « مَعَاذَ اللَّهِ » منصوب على المصدر . أى : أعوذ بالله مما تدعينى إليه ، لكونه
زنى وخيانة فيما أوثمت عليه ، وضراً لمن توقع النفع ، وإساءة إلى المحسن .
قال أبو السعود : وهذا اجتناب منه على آثم الوجوه ، وإشارة إلى التعليل بأنه منكر
هائل ، يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، وما ذاك إلا لأنه عليه السلام قد شاهده بما
أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه فى حد ذاته من غاية القبح ، ونهاية السوء .
وقوله : (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية ،
مما عسى أن يكون مؤثراً عندها ، وداعياً لها إلى اعتباره بعد التنبيه على سببه الداتى الذى تكاد
تقبله لما سولته لها نفسها . والضمير للشأن . وفائدة تصدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها ،
مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم
له خطر ، فيبقى الذهن مترقباً لما يعقبه ، فيتمكن عند وروده له فضل تمكن . فكأنه قيل :
إن الشأن الخطير هذا ، وهو ربى ، أى سيدى العزيز ، أحسن مَثْوَايَ ، أى تمهدى ، حيث
أمرك يا كرامى ، فكيف يمكن أن أسىء إليه بالخيانة فى حرمه ؟ وفيه إرشاد لها إلى رعاية

حق العزيز بألطف وجه . وقيل : الضمير لله عز وجل ، و (رَبِّي) خبر (إِنَّ) ، و (أَحْسَنَ مَثْوَايَ) خبر ثان . أو هو الخبر والأول بدل من الضمير . والمعنى : أن الحال هكذا ، فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة ؟ وفيه تحذير لها من عقاب الله عز وجل . وعلى التقديرين ، ففي الاختصار على ذكر هذه الحالة من غير تعرض للامتناع عما دعته إليه ، إيذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالتهم ، وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلاً .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ » تعليل للامتناع المذكور ، غيب تعليل . و (الفلاح) الظفر ، أو البقاء في الخير . ومعنى (أفلح) دخل فيه ، كأصبح وأخواته . والمراد بـ (الظالمين) كل من ظلم ، كائناً من كان ، فيدخل في ذلك المجازون للإحسان بالإساءة ، والمصاة لأمر الله تعالى ، دخولاً أولياً . وقيل : الزناة ، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، وللمزني بأهله . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : ثمرات هذه الآية ثلاث :

الأولى - أن الواجب عند الدعاء إلى المصيبة الاستمادة بالله من ذلك ، ليعصمه منها ، ويدخل فيه دعاء الشيطان ، ودعاء شياطين الإنس ، ودعاء هوى النفس .
الثانية - أن السيد والمالك يسمى (رَبًّا) .

الثالثة - أنه يجوز ترك القبيح لقبحه ، ورعاية حق غيره ، وخشية العار ، أو الفقر ، أو الخوف ، ونحو ذلك . ولا يقال : التشريك غير مفيد في كونه تاركاً للقبيح ، وأنه لا يثاب . وتدل أيضاً على لزوم حسن المكافأة بالجميل ، وأن من أخل بالمكافأة عليه ، كان ظالماً . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)

« وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ » (المهم) : يكون بمعنى القصد والإرادة ، ويكون فوق الإرادة ودون العزم ، إذا أريد به اجتماع النفس على الأمر والإجماع عليه ، وبالعزم : القصد إلى إيمانه . فهو أول العزيمة . وهذا معنى قولهم : المهم هان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا وهو مذموم مؤاخذ به ؛ وهمٌّ بمعنى خاطر ، وحديث نفس ، من غير تصميم ، وهو غير مؤاخذ به . لأن خطور المناهى في الصدور ، وتصورها في الأذهان ، لا مؤاخذة بها ما لم توجد في الأعيان .

روى الشيخان^(١) وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به ، أو تعمل به . ورواه الطبراني عن عمران ابن حصين رضي الله عنهما .

فمعنى قوله تعالى : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ) أى بمخالطته ، أى قصدتها وعزمت عليها عزماً جازماً ، لا يلويها عنه صارف ، بعد ما باشرت مبادئها من الراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع إليها بقولها (هَيْتَ لَكَ) مما اضطره إلى الهرب إلى الباب . ومعنى قوله (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) أى لولا رؤيته برهان ربه لهم بها ، كما همت به ، لتوفر الدواعى . ولاكنه رأى من تأييد الله بالبرهان ما صرف عنه السوء والفحشاء .

(١) أخرجه البخارى في : ٤٩ - كتاب العتق ، ٦ - باب الخطأ والنسيان في العتاقة

والطلاق ونحوه ، حديث رقم ١٢٤٢ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٠١ و ٢٠٢ (طبعمتنا) .

قال أبو حيان : ونظيره (قارفتَ الإثمَ لولا أن الله عصمك) . ولا نقول : إن جواب (لولا) يتقدم عليها ، وإن لم يتم دليل على امتناعه ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف فيها ، حتى ذهب الكوفيون وأعلام البصريين إلى جواز تقدمه ، بل نقول : هو محذوف لدلالة ما قبله عليه ، لأن المحذوف في الشرط يقدر من جنس ما قبله . انتهى .

فالآية حينئذ ناطقة بأنه لم يهّم أصلاً . وقيل : جواب (لولا) لنشيتها ونحوه . فعنى (اللهم) حينئذ ما قاله الإمام الرازي : من أنه خطور الشيء بالبال ، أو ميل الطمع ، كالصائم في الصيف ، يرى الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل إليه ، وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه . وكالمرأة الفاتنة حسناً وجمالاً ، تمهياً للشاب النامى القوى ، فتقع بين الشهوة والعفة ، وبين النفس والعقل ، مجاذبة ومنازعة . (فالهم) هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، ورؤية البرهان جواذب الحكمة . وهذا لا يدل على حصول الذنب ، بل كلما كانت هذه الحال أشد ، كانت القوة على لوازم العبودية أكمل . انتهى .

وكذا قال أبو السمود : إن همه بها بمعنى ميله إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وشهوة الشباب وقرمه ، ميلاً جبلياً ، لا يكاد يدخل تحت التكليف ، لأنه قصدها قصداً اختيارياً . ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه النبي عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بمدم إفلاح الظالمين ؟ وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه - عليه السلام - تسجيلاً محكماً ؟ وإنما عبر عنه بالهم ، لمجرد وقوعه في حجة ههما في الذكر ، بطريق المشاكلة ، لا لشبهه به كما قيل . ولقد أشير إلى تباينهما ، حيث لم يُلَزَمَ في قرآن واحد من التعبير ، بأن قيل : ولقد هما بالمخالطة ، أو هم كل منهما بالآخر . وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي ، وعقب الثاني بما يعفو أثره من قوله عز وجل : (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ، أى حجته الباهرة ، الدالة على كمال قبح الزنى ، وسوء سبيله . والمراد برؤيته لها كمال إيقانه بها ، ومشاهدته لها مشاهدة واصلة إلى مرتبة عين اليقين . وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنى

بموجب ذلك البرهان النير ، على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون ، وأوجب ما يجب أن يحذر منه ، ولذلك فعل ما فعل من الاستمصاص ، والحكم بعدم إفلاح من يرتكبه .

وجواب (لولا) محذوف ، يدل عليه الكلام . أى : لولا مشاهدة برهان ربه في شأن الزنى لجرى على موجب ميللة الجبلى ، ولكن حيث كان مشاهدآ له من قبل ، استمر على ما هو عليه من قضية البرهان . وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام ، لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة ، بل لمحض العفة والنزاهة ، مع وفور الدواعى الداخلية ، وترتيب المقدمات الخارجية ، الموجبة لظهور الأحكام الطبيعية . انتهى .

فاتضح أن لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام ، فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلىة ، ولكنهم معصومون من طاعتها ، والانقياد إليها . ولولم توجد عندهم دواع جبلىة ، لكانوا إما ملائكة أو عالمآ آخر . ولما كانوا مأجورين على ترك المناهى ، لأنهم يكونون مقهورين على تركها طبعآ . والعين لا يؤجر ويثاب على ترك الزنى ؛ لأن الأجر لا يكون إلا على عمل ، والترك بغير داعية ليس عملاً ، وأما الترك مع الداعية ، فهو كف النفس عما تتشوف إليه ، فهو عمل نفسى .

وحقيقة عصمة الأنبياء هى نزاهتهم ، وبمقدم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى بعثوا لتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحنة للسفهاء على انتهاك حرمت الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشرى .

هذا وقد ألقى هنا بعض المفسرين الولعين بسررد الروايات ، ما تلقفوه من أهل الكتاب ، ومن المتصولحين ، من تلك الأقاصيص المحتلقة على يوسف عليه السلام ، فى همه ، التى أزه تأليق عن نقلها ، بردها ، وكأها - كما قال الملامة أبو السعود - خرافات وأباطيل ، تمعجها الآذان ، وتردها المقول والأذهان ، ويل لمن لا كها ولفقها ، أو سمعها وصدقها . وسبقه

الزخشرى ، فجود الكلام في ردها ، فليُنظر ، فإنه مما يسر الواقع عليه .

(السوء) : المنكر والفجور والمكروه . (والفحشاء) : ما تفاهى قبحه

قال أبو السعود : وفي قوله تعالى (لِنَصْرِفَ عَنْهُ . . .) الخ آية بيّنة ، وحجة قاطعة على أنه عليه الصلاة والسلام لم يقع منه همّ بالمصيبة ، ولا توجه إليها قط ، وإلا لقليل : لنصرفه عن السوء والفحشاء . وإنما توجه إليه ذلك من خارج ، فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة . فتأمل .

و (المخلصين) قرئ بكسر اللام ، بمعنى الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح أى الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

قال الشهاب : قيل : إن كل من له دخل في هذه القصة شهد ببراءته عليه السلام . فشهد الله تعالى بقوله (لِنَصْرِفَ . . .) الخ ، وشهد هو على نفسه بقوله : (هِيَ رَاوَدَتْنِي) ونحوه ، وشهدت امرأة العزيز بقولها : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ، وسيدها بقوله : (إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) وإبليس بقوله : (لِأَعْوِبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ) فتضمن إخباره بأنه لم يُعوه ، ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص . انتهى . عفا الله عنهم !

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ، قَالَتْ

مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« وَاسْتَبَقَا الْبَابَ » متصل بقوله : (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . . .) الخ ، وقوله : (كَذَلِكَ) الخ ، اعتراف جى به بين المطوفين تقريراً لنزاهته . والمعنى : ولقد همت به ، وأبى هو ، واستبقا الباب ، أى قصد كل سبق الآخر إلى الباب : فيوسف عليه السلام ليخرج ، وهى لتتمتع من الخروج ووحد (الباب) هنا مع جمعه أولاً ؛ لأن المراد بالباب البرانى الذى منه المخلص .

« وَوَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى اجتذبتَه من خلفه فانقدتْ ، أى انشق قميصه .
 « وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ » أى صادقاً بملها ثم قادماً .
 « قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » تبرئة لساحتها ، وإغراء عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)
 « قَالَ هِيَ رَاوْدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » لأن قدّمه منه أمارّة الدّفع عن نفسها به ، أو تمسّره فى مقام قميصه بسبب إقباله عليها ، فقدت لإسراعه خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ)
 « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ » لأنه أمارّة إيداره عنها بسبب أنها تبعته ، واجتذبت ثوبه إليها فقدته .

ومن اللطائف ما قيل : إن هذا الشاهد أراد ألا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قميصه إنما كان من دبر ، فنصبه أمارّة لصدقه وكذبها . ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قدّمه من قُبُل ، على علم بأنه لم ينقدت من قبل حتى ينفى عن نفسه التهمة فى الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارّة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارّة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثمّ قدم أمارّة على صدقها ، على أمارّة صدقه فى الذّكر ، إزاحة للتهمة ، ووثوقاً بأن الأمارّة الثانية هى الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم -

هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله ^(١) : (وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) . فقدم قسم الكذب على قسم الصدق ، إزاحة للتهمة التي خشى أن تتطرق إليه في حق موسى عليه السلام ، ووثوقاً بأن القسم الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال : (بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) ، ولم يقل : كل ما يعدكم ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخره حقه . وينحو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام ، لكشف وعاء أخيه الآتي ذكره ، لأنه لو بدأ به لفظنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ، إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) « فَلَمَّا رَأَىٰ قَيْصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ » يعني بالكيد : الحيلة والمكر . وإنما استعظم كيدهن ، لأنه أطف وأعلق بالقلب ، وأشد تأثيراً في النفس ، ولهن فيه نيفة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

تنبية :

قال ابن الفرس : يحتج بالآية من يرى الحكم بالأمارات والعلامات ، فيما لا تحضره البيئات ، كاللقطة والسرقفة والوديمة ومعاقد الحيطان والسقوف وشبهها .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ، إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ) « يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » نودي بحذف حرف النداء ، لقربه وكإل تطفنه للحديث .

(١) [٤٠ / غافر / ٢٨] .

أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر واكتمه ، ولا تحدث به .

« وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ » أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو برى منه .

« إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ » أى من جملة القوم المتمدين للذنب . يقال : خطى إذا أذنب متممداً ، وأخطأ إذا فعله من غير تعمد . ولهذا يقال : أصاب الخطأ ، وأخطأ الصواب ، وأصاب الصواب . وإيثار جمع السالم تغليماً للذكور على الإناث . ودل هذا على أن العزيز كان رجلاً حليماً ، إذا كتمى من مؤاخذتها بهذا المقدار .

قال ابن كثير: أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه . ويقال: إنه كان قليل الغيرة . قال الشهاب : وهى لطف من الله تعالى بيوسف عليه السلام .

وقال أبو حيان : إنه مقتضى تربة مصر . انتهى .

وقد تقرر لدى المحققين أن لاختلاف أحوال العمران فى الخصب والجذب ، وأقاليمه فى الحرارة والبرودة وتوابعها - أثرأ فى أخلاق البشر وأبدانهم - انظر المقدمة الرابعة والخامسة من (مقدمة ابن خلدون) .

ثم ذكر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة - وهى مصر - بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ، قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » العزيز : الأمير ، مأخوذ من (العز) وهو الشدة والقهر . وقد غلب على أمير مصر والإسكندرية .

« قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا » أى خرق حبه شغاف قلبها ، حتى وصل إلى الفؤاد . و (الشغاف) كسحاب ، حجاب القلب .

« إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » أى فى خطأ عن طريق الرشد والصواب . وإقحام الرؤية ، للإشعار بأن حكمهن بضلالها صادر عن رؤىة وعلم ، مع التلويح إلى تنزههن عن مثل ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) « فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ » أى اغتيا بهن ، وسوء قائلهن . استعمير (المكر) ل (لغمية)

لشبهها له فى الإخفاء . أو (المكر) على حقيقته ، وكن قلن ذلك لترهين يوسف .

« أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ » أى تدعوهن للضيافة ، مكرأ بهن ، « وَأَعْتَدَتْ » أى أحضرت وهيات ، « لَهُنَّ مُتَّكِنًا » أى ما يتكنن عليه من الوسائد ، « وَأَنْتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا » أى ليعالجن بها ما يأكلن من الفواكه ونحوها . « وَقَالَتِ » أى ليوسف « اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ » أى ابرز إليهن .

قال الزمخشري : قصدت بتلك الهياة - وهى قوموهن متكئات ، والسكاكين فى أيديهن -

أن يدهشن ويُبهنَّ عند رؤيته ، ويشغلن عن نفوسهن ، فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها ، لأن المتسكىء إذا بُهتَ لشيء وقت يده على يده ، فتبكنهن بالحجة ، وقد كان ذلك كما قال تعالى : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ » أى أعظمته ، وهبن حسنه الفائق ، « وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ »

أى جرحنها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، تريد : جرحتها . « وَقُلْنَ

حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » حاش : أصله حاشا ، وحذفت ألفه تخفيفاً ، وبها قرأ أبو عمرو فى الدرج ، أى تنزيهاً له سبحانه عن صفات النقص والعجز ،

وتعجباً من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع . وإنما تقين عنه البشرية لغرابة جهاله ، وأثبتن له الملكية ، على نهج القصر ، بناء على ما ركز في الطباع ألا أحسن من الملك ، كإركز فيها إلا أفتح من الشيطان . ولذلك يشبهه ، كل متناه في الحسن والقبح ، بهما .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ ،
وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ)
« قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ » أى فى الافتتان به ، « وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِي
فَأَسْتَعْصِمَ » أى امتنع ، طالباً للمصمة ، مستزيداً منها .

قال الزمخشري : الاستعصام بناء مبالغة ، يدل على الامتناع البليغ ، والتحفظ الشديد ، كأنه فى عصمة ، وهو يجتهد فى الاستزادة منها . ونحوه : استمسك ، واستوسع الفتق ، واستجمع الرأى ، واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام ، لا مزيد عليه ، وبرهان لا شىء أنور منه ، على أنه برىء مما أضاف إليه أهل الحشو ، مما فسروا به الهمم والبرهان . انتهى .

« وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ » أى ليعاقبن بالسجن والحبس « وَلَيَكُونَا
مِنَ الصَّاغِرِينَ » أى الأذلاء المهانين .
ولما سمع يوسف تهديدها :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَضْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنُّ مِنَ الْجَاهِلِينَ)
« قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » أى من مواناتها ، لأنه مشقة قليلة ،

تعبها راحت أبدية . ثم فزع إلى الله تعالى في طلب العصمة بقوله «وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ»
يعنى : ما أردن منى «أَصْبُ إِلَيْهِنَّ» أى أَمِلُ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية «وَأَكُنْ مِنْ
الْجَاهِلِينَ» أى بسبب ارتكاب ما يدعوننى إليه من القبيح .

قال أبو السمود : هذا فزع منه ، عليه السلام ، إلى أطاف الله تعالى ، جريا على سنن
الأنبياء والصالحين ، فى قصر نيل الخيرات ، والنجاة من الشرور ، على جناب الله عز وجل ،
وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ، ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن بإظهار أن
لا طاقة له بالمدافعة ، كقول المستغيث : أدركنى وإلا هلكت . لأنه يطلب الإجبار والإجاء
إلى العصمة والمنة ، وفى نفسه داعية تدعوه إلى هوانه . انتهى .

قال القاشانى : وذلك الدعاء هو صورة افتقار القلب الواجب عليه أبدا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)
« فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ » أى أجاب له دعاءه « فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ » أى أبده
بالتأييد القدسى ، فصرفه إلى جناب القدس ، ودفع عنه ، بذلك ، كيدهن « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ »
أى لدعاء المتضرعين إليه ، « الْعَلِيمُ » أى بما يصلحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)
« ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ » أى ظهر للعزير وأهله ، « مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ » أى الشواهد على
برأته ، « لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ » أى إلى مدة يرون رأيهم فيها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ ، قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ، وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ » روى أنهما غلامان كانا لفرعون مصر ، أحدهما رئيس سقاته والآخر رئيس طعامه ، غضب عليهما فحبسهما ، فكانا مع يوسف ، ثم رآهما يوماً وهما مهمومان فسألها عن شأنهما ، فذكر له أنهما رأيا رؤيا غمتهما ، وليس لها من يعبرها . فقال لها : أليس التأويل لله ؟ فصا على ! فذلك قوله تعالى : « قَالَ أَحَدُهُمَا » وهو صاحب شرابه : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب ، وذلك أنه قال : رأيت في المنام كأن بين يدي وعاء فيه ثلاثة قضبان عنب ، ثم نضجت عناقيدها وصارت عنباً ، وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في الكأس ، وناولتها لفرعون .

« وَقَالَ الْآخَرُ » وهو صاحب طعامه : « إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ » وذلك أنه قال له : رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال حواري ، والطير تأكل من السلة العليا فوق رأسي .

« نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » أى أخبرنا بتفسير ما رأينا ، وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا « إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أو من المحسنين إلى أهل السجن ، تداوى مريضهم ، وتعزى حزينهم ، وتوسع على فقيرهم ، فأحسن إلينا بكشف غممتنا ، إن كنت قادراً على ذلك .

ثم أشار ، عليه السلام ، لها بأن ما رآياه سهل التأويل ، لوجود مثاله في المنام ، وأن له علماً فوقه ، وهو أنه يبين لها كل جليل ودقيق من الأمور المستقبلية ، وإن لم يكن هناك

مقدمة المنام ، حتى إن الطعام الموظف الذى يأتهما كل يوم ، يبينه لهما قبل إتيانه ، وإن ذلك ليس من باب الكهانة ، بل من الفضل الربانى لمن يصطفيه بالنبوة ، وهذا معنى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (قَالَ لَا يَا تَيْكَمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَا تَيْكَمَا ، ذَالِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)

« قَالَ لَا يَا تَيْكَمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَا تَيْكَمَا » أى قبل أن يصلكما . والمراد بالطعام ما يبعث إلى أهل السجن . وتأويله ذكر ماهو ، بأن يقول : يَا تَيْكَمَا طَعَامٌ كَيْتٌ وَكَيْتٌ ، فيجدانه كذلك . وحقيقة (التأويل) تفسير الألفاظ المراد منها خلاف ظاهرها ببيان المراد .

قال أبو السعود : فإطلاقه على تعيين ما سيأتى من الطعام ، إما بطريق الاستعارة ، فإن ذلك بالنسبة إلى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل ، بالنظر إلى ما رُئى فى المنام ، وشبيه له ؛ وإما بطريق المشاكلة ، حسبما وقع فى عبارتهما من قولها : (نَبَّأْنَا بِتَأْوِيلِهِ) . ومراده عليه السلام بذلك : بيان كل ما يهيمهما من الأمور المترتبة قبل وقوعها . وإنما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقاً فى ذلك ، بحسب الحال ، مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص إليه مما استعبراه من الرؤى المتعلقين بالشراب والطعام .

« ذَالِكُمَا » أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات « مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » أى بالوحي والإلهام ، لا من التكهن والتنجيم . وفيه إشعار بأن له علوماً جمة ، ما سمعاه شذرة من جواهرها . وقوله تعالى : « إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَاتَّبَعَتْ مُلَّةً ءَابَأْتُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِأُشْرِكٍ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)

« وَاتَّبَعَتْ مُلَّةً ءَابَأْتُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ »
 هذه الجملة إما مسوقة لبيان علة تعليم الله له بالوحى والإلهام، أى خصنى بذلك لترك الكفر، وسلوك طريق آبائى المرسلين . أو كلام مستأنف ، ذكر تمهيداً للدعوة ، وإظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتهما فى الاستماع إليه ، والوثوق به . والمراد بتركه ملة الكفر الامتناع عنها رأساً ، كما يفصح عنه قوله : (مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) ، أى ماصح ولا استقام ذلك لنا ، فضلاً عن الوقوع . وإنما عبر عنه بذلك ، لكونه أدخل بحساب الظاهر فى اقتدائهما به عليه السلام . والتخصيص بهم ، مع أن الشرك لا يصح من غيرهم أيضاً ، لأنه يثبت بالطريق الأولى . أو المراد نفي الوقوع منهم لمصمتهم . وتكرير (هُمْ) للدلالة على اختصاصهم ، وتأكيدهم بالآخرة . وزيادة (من) فى المفعول ، أعنى (مِنْ شَيْءٍ) لتأكيد العموم ، أى لا نشرك به شيئاً من الأشياء ، قليلاً أو كثيراً ، صنأً أو ملكاً أو جنياً أو غير ذلك .

وقوله : (ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) يعنى عدم الإشراف بالله ، وهو التوحيد ، من نعم الله العامة ، التى يجب شكره تعالى على الهداية لها بالفطر السليمة ، ونصب الدلائل الأنفسية والآفاقية .

ثم بين أن أكثر الناس نبذوا هذه النعمة بعد ما حق عليهم شكرها .

ولما ذكر ، عليه السلام ، ما هو عليه من الدين القويم ، تلتطف فى الاستدلال على بطلان ما عليه قومها من عبادة الأصنام ، ف ضرب لها مثلاً يتضح به الحق حق انصاح بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَّابٌ مُتَفَرَّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

« يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَّابٌ مُتَفَرَّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » وصفهما بالصحبة الضرورية المقتضية للمودة ، وبذل النصيحة . أى : يا صاحبي فيه . فجعل الظرف توسعاً ، مفعولاً به . أى : أرباب شتى تستعبد الناس خير لهم ، أم أن يكون لهم رب واحد قهار لا يغاب ؟

قال بعضهم : دلت الآية على أن الشرع كما جاء مطالباً بالاعتقاد ، جاء هادياً لوجه الحسن فيه . وذلك أن هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التمسك لما وجه قلبه إليه ، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى . أما اعتقاد جميعهم بإله واحد ، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفي ذلك نظام أخوتهم ، وهي قاعدة سعادتهم . فالشرع جاء مبيناً للواقع في أن معرفة الله بصفاته ، حسنة في نفسها ، فهو ليس مُحَدِّثَ الحسَن . انتهى .

وفي قوله : (أَرَبَّابٌ مُتَفَرَّقُونَ) إشارة إلى ما كان عليه أهل مصر لعهد عليه السلام ، من عبادة أصنام شتى .

يقول بعضهم : كما أن مصر كانت تغلبت في العلوم والسلطة ، كذلك في عبادة الأصنام ، فإن أهلها فاقوا كل من سواهم في الضلال ، فكانوا يسجدون للشمس وللقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأذنى حشرات الأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ » أى من دون الله « إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ »
 يعنى أنكم سميتم ، ما لا يستحق الإلهية ، آلهة ، ثم طفتم تعبدونها ، فكأنكم لا تعبدون
 إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ » أى حجة تدل على صحتها
 « إِنْ الْحُكْمُ » أى فى أمر العبادة والدين « إِلَّا لِلَّهِ » لأنه مالك ، وهو لم يحكم بمبادئها ،
 لأنه « أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » لأن العبادة غاية التذلل ، فلا يستحقها إلا من له غاية
 العظمة ، « ذَلِكَ » أى التوحيد الدال على كمال عظمة الله ، بحيث لا يشاركه فيها غيره
 « الدِّينُ الْقَيِّمُ » أى الحق المستقيم الثابت ، « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى
 لجهلهم ، ولذا كان أكثرهم مشركين .

تنبيه :

لا يخفى أن قوله تعالى : (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ) إلى هنا ، مقدمة لجواب سؤالهما
 عن تعبير رؤيأها ، مهد ، عليه السلام ، بها له ليدعوها إلى التوحيد ، ليزدادا علماً بمعظم شأنه ،
 وثقة بأمره ، توسلاً بذلك إلى تحقيق ما يتوخاه من هدايتهما ، لاسيما وأن أحدهما سيماجله
 منيته بالصلب ، فرجا أن يختم له بخير .

قال الزمخشري : لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك ، فوصل به وصف نفسه
 بما هو فوق علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبئهما بما يحمل إليهما من الطعام ،
 وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لها التوحيد ، ويعرض عليهما الإيمان ، ويزينه لها ،
 ويقبح إليهما الشرك بالله . وهذه طريقة ، على كل ذى علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة

إذا استفتاه واحد منهم ، أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة الحسنة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به ، وأوجب عليه مما استفتى فيه ، ثم يفتيه بمد ذلك . وفيه ، أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم ، فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه ، وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية . انتهى .

وبعد تحقيق الحق ، ودعوتها إليه ، وبيانها لها مرتبة علمه ، شرع في تفسير ما استفسراه . ولكونه بحثاً مغايراً لما سبق ، فصله عنه بتكرير الخطاب فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ أَفْسَقَى رَبَّهُ سَحَرًا ، وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلَّبُ
فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)

« يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ أَفْسَقَى رَبَّهُ سَحَرًا » أى يخرج من السجن ، ويمود إلى ما كان عليه من سق سيده الحجر ، « وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ » أى فيقتل ويلقى على خشبة ، فتأكل الطير من لحم رأسه .

« قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ » أى قطع وتم ما تستفتيان فيه . يعنى : مآله ، وهو نجات أحدهما ، وهلاك الآخر . والتميم عنده بـ (الأمر) ، وعن طلب تأويله بـ (الاستفتاء) تهويلاً لأمره ، وتفخيماً لشأنه ، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشككة الحكم ، البهمة الجواب ، وإيثار صيغة الاستقبال ، مع سبق استفتائهما في ذلك ، لما أنهما بصدده ، إلى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمِيتَ فِي السِّجْنِ بِضَعَ سِنِينَ)

« وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » أى قال يوسف للذى علم نجاته من الفتيين ، أى خلوصه من السجن والقتل ، وهو الساقى : (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) أى : اذكر حالى وصفتى ، وعلمى بالرؤيا ، وما جرى على ، عند الملك سيدك ، عسى يخلصنى مما ظلمت به .

و (الظن) بمعنى العلم واليقين ، ورد كثيراً ، والتميمير به إرخاء للعنان ، وتأدب مع الله تعالى . وقيل : الظن بمعناه المعروف ، بناء على أن تأويل يوسف بطريق الاجتهاد ، والحكم بقضاء الأمر اجتهادى أيضاً ، والأول أنسب بالسياق .

تنبیه :

دلت الآية على جواز الاستمانه بمن هو مظنة كشف النعمة ، ولو مشركا . وقد جاء ذلك في قوله تعالى (١) : (وَتَمَآوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) . وقوله حكاية عن عيسى (٢) : (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) . وفي الحديث (٣) : (والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه) . وجلى أن ذلك من نظام الكون ، والعمران البشرى ، ولذلك ميز الإنسان بالنطق .

وأما ما رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعا : لو لم يقل - يعنى يوسف - الكلمة التى قال ، ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله تعالى - فقال الحافظ ابن كثير : حديث ضعيف جداً ، وذكر من رجاله الضمفاء راويين سماها . ثم قال :

(١) [٥ / المائدة / ٢] . (٢) [٣ / آل عمران / ٥٢] و [٦١ / الصف / ١٤] .

(٣) أخرجه مسلم فى ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٣٨

(طبعتنا) من حديث طويل لأبى هريرة .

وروى أيضا مرسلًا عن الحسن وقتادة . قال: وهذه الرسائل هاهنا لا تقبل، لو قِيلَ المرسل من حيث هو، في غير هذا الوطن . - والله أعلم - انتهى . ولقد أجاد وأفاد عليه الرحمة .

وقوله تعالى: « فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ » بمعنى: فشفله الشيطان حتى نسى ذكر يوسف عند الملك . « فَلَبِثَ » أى مكث يوسف « فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ » أى طائفة منها . ولأهل اللغة أقوال في (البضع): ما بين الثلاث إلى التسع، أو إلى الخمس، أو ما لم يبلغ المقدم ولا نصفه، أى ما بين الواحد إلى الأربعة، وقيل غير ذلك . ولما دنا الفرج من يوسف عليه السلام، برحمته تعالى، وما هيأه من الأسباب: رأى فرعون مصر هذه الرؤيا التي أشار إليها تعالى بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

[٤٣] (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ » أى الملك: « إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ » أى هالكات من الهزال . جمع عجفاء، بمعنى المهزولة، ضد السمينة، « وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ » أى وأرى رؤيا ثانية سبع سنبلات « خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أى وسبعاً آخر يابسات دقيقة، أى نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الخضر المتلثة . وإنما استغنى عن عددها وإعدامها للخضر، للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات لأنها نظيرتها .

وقوله: « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » خطاب للأشراف من قومه، وكان دعا، إثر استيقاظه، سحرة مصر وحكماءها، وقص عليهم رؤياه هذه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ)

« قَالُوا » أى اللأ للملك « أَضْغَاتٌ أَحْلَامٍ » أى تخاليطها ، جمع (ضغث) . وهو فى الأصل ما جمع من أخلاط النبات وحُرْمٍ ، ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ، ووساوس الشيطان ، وترهبها فى المنام . و(الأحلام) جمع (حلم) ، وهو ما يراه النَّائمُ ، فهو مرادف للرؤيا ، إلا أنها غلبت فى رؤيا الخير ، والشئ الحسن ، وغلب الحلم على خلافه . وفى الحديث ^(١) ؟ الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان .

قال التوربشقى : الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التى سنّها الشارع للفصل بين الحق والباطل ، كأنه كره أن يسمى ما كان من الله ، وما كان من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن الصالح منها ، لما فى الرؤيا من الدلالة على المشاهدة بالبصر أو البصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ، لأن أصل الكلمة لم يستعمل إلا فيما يخيل للعالم فى منامه من قضاء الشهوة ، مما لا حقيقة له . انتهى .

والمراد بالجمع فى (الأحلام) ما فوق الواحد ، لأنهما حلمان ، رأى كل واحد منهما إثر استيقاظه منه ، كما روى . وفهم بعضهم أنه حلم واحد ، فالتمس للجمع نكتة فقال : إما المبالغة فى وصفه بالبطلان ، أو تضمنه أشياء مختلفة . ولا حاجة إليه ، كما بينا .

« وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ » يتمل أن يريدوا ب(الأحلام) المنامات الباطلة خاصة . أى : ليس لها تأويل عندنا ، وإنما التأويل للرؤيا الصادقة ، وأن يمتروا بقصور علمهم ، وأنهم ليسوا فى التعمير بنحارير .

قال الناصر : وهذا هو الظاهر . وحمل الكلام على الأول بصيره من وادى :

* على لا حِبِّ لا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ *

(١) أخرجه البخارى فى : ٩١ - كتاب التعمير ، ١٠ - باب من رأى النبى ﷺ فى

المنام ، حديث ١٥٥٤ ، عن أبى قتادة .

كأنهم قالوا : ولا تأويل للأحلام الباطلة ، فنكون به عالمين . وقول الملك لهم أولاً : (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها ، لأنه أتى بكلمة الشك ، وجاء اعترافهم بالقصور مطاباً لشك الملك الذي أخرجه مخرج استغفامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولاً . وقول الفتى : (أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ) إلى قوله (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) دليل أيضاً على ذلك - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمْ أَوَادٌ كَرَّ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ)
 « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا » أي من صاحبي السجن ، وهو الساقى : « وَادَّ كَرَّ بَعْدَ أُمَّةٍ »
 أي تذكراً بعد مدة . وكان تذكراً ، على ما روى ، بعد سنتين « أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ »
 أي أخبركم به بالتلغى عن عنده علمه ، لا من تلقاء نفسه ، ولذلك لم يقل : أنا أفتيكم فيها ،
 وعقبه بقوله « فَأَرْسِلُونِ » أي فابعثوني إلى يوسف ، وإنما لم يذكره ، ثقة بما سبق من
 التذكير ، وما لحق من قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

« يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ » أي أرسل إليه ، فأتاه فقال : يا يوسف ! ووصفه بالمبالغة في الصدق ، حسباً ذاق أحواله ، وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ، ورؤيا صاحبه ، حيث جاء كما أول ، لكونه بصدد اغتنام مكارفه ، فهو من باب براءة الاستهلال « أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ » أي في

تأويل رؤيا ذلك . ولم يغير لفظ الملك ، لأن التعبير يكون على وفقه ، كما بينوه . وفي قوله : (أَفْتِنَا) مع أنه المستفتى وحده إشعار بأن الرؤيا ليست له ، بل لغيره ممن له ملابسة بأمر العامة ، وأنه في ذلك معبر وسفير ، كما آذن بذلك قوله : « لَعَايَ أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك ومن عنده « لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ » أى ذلك : فيعملون بمقتضاه ، أو يعلمون فضلك ومكانك من العلم ، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك . وإنما لم يبت الكلام ، بل قال (لعل) و (لعلهم) مجازاة معه على نهج الأدب ، واحترازاً عن المجازفة ، إذ لم يكن على يقين من الرجوع ، فرجما اخترم دونه .

* لعل المنايا دون ما تمدانى *

ولا من علمهم بذلك ، فرجما لم يعلموه - أشار إليه أبو السعود - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

[٤٨] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ)

[٤٩] (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ)

« قَالَ » أى يوسف له في تأويلها « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا » أى دائبين مواظبين كل عام منها « فَمَا حَصَدْتُمْ » أى من الزرع « فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ » أى لا تدرسوه ، فإنه أبقى له « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ » أى في تلك السنين ، يعنى بقدر ما تأكلون .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السبع المذكورات « سَبْعٌ شِدَادٌ » أى سبع سنين صماب على الناس ، لقوة القحط « يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ » أى ما رفعتن لهن من الحبوب

المتروكة في سنا بلها . ولما عبر عن البقرات بالسنين ، نسب الأكل إلى السنين . كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئي في المنام ، والمعبر به ، وهو تأويله . ولا يتمين الحجاز العقلي - أى يؤكل فيها - كما فى : (نهارة صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ . « إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ » أى تحرزون وتخبثون للزراعة .

« ثُمَّ يَأْتِي مِنَ بَعْدِ ذَلِكَ » أى السنين الموصوفة بالشدة ، وأكل الفلال المدخرة « عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ » أى يعطرون من الفيث ، أو يفاثون من القحط ، أو يرفع عنهم مكروهه من الغوث « وَفِيهِ يَمْعِرُونَ » أى ما كانوا يعصرونه على عاداتهم من عنب وزيتون ونحوها .

قال أبو السعود : والتعرض لذكر (المصر) ، مع جواز الاكتفاء عنه بذكر (الفيث) المستلزم له عادة ، كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الجبوب ، إما لأن استلزام الفيث له ليس كاستلزامه للجبوب ، إذ المذكورات يتوقف صلاحها على مبادئ أخر غير المطر . وإما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به ، بشارة له ، وهى التى يدور عليها حسن موقع تغليبها على الناس ، فى القراءة بالفوقانية . وقيل : معنى (يَمْعِرُونَ) يجلبون الضروع . انتهى .

واللفظ بمعوم معناه يشمله ، لأن الحلب فيه عصر الضرع ليخرج الدر .

قال الزمخشري : تأويل البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة ، والمجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك جهة الوحي .

تنبيه

قال فى (الإكمال) : هذه الآية من أصول التعمير . وفيها أيضاً صحة رؤيا الكفار ، وجواز تسميته ملكاً ، وأن قولنا (الرؤيا لأول عابر) ليس عاملاً فى كل رؤيا ، لأنهم قالوا :

(أَضْفَاكُ أَخْلَامٍ) ، ولم تستقط بقولهم ذلك ، فتخصص القاعدة بما يحتمل من الرؤيا وجوهاً فيعبر بأحدها ، فيقع عليه . وفي قوله : (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ ...) الخ زيادة على ما وقع السؤال عنه ، فيستدل به على أنه لا بأس بذلك في تعبير الرؤيا والقوى . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ » أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، لما علم من علمه وفضله ، « فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ » أى يستدعيه إلى الملك « قَالَ » أى يوسف له : « ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ » أى سيدك الملك ، « فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » أى ما شأنهن وخبرهن ؟ أمره بأن يسأله ويستفهمه عن ذلك ، ولم يكشف له عن القصة ، ولا أوضحها له ، لأن السؤال مجملاً ، مما يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام ، فتحصل البراءة . وإنما كان السؤال المجمل يهيج الإنسان ، ويحركه للبحث عنه . لأنه يأنف من جهله وعدم علمه به ، ولو قال : سله أن يفتش عن ذلك ، لكان طلباً للفحص عنه ، وهو مما يتسامح ويتساهل به ، وفيه جراءة عليه ، فربما امتنع منه ، ولم يلتفت إليه .

قال الزمخشري : إنما تأتي وتثبت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قرف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقبيح أمره عنده ، ويحملوه سلماً إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا : ما خلد في السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف شره ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها . قال عليه السلام ^(١) : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن

(١) لم أهتد إلى هذا الحديث .

موافق التهم . ومنه قال ^(١) رسول الله ﷺ للمارين به في معتكفه ، وعنده بمض نسائه : هي فلانة ، اتقاء للثمة .

وعن النبي ﷺ : لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره ، والله يغفر له ، حين سئل عن البقرات المعجاف والسمان . ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى اشترط أن يخرجوني . ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال : (ارجعْ إِلَى رَبِّكَ) ، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبثت ، لأسرعت الإجابة ، وبأدبهم الباب ، ولما ابتغيت العذر . إن كان حلماً ذا أناة . انتهى .

رواه عبد الرزاق في مصنفه مرسلًا عن عكرمة .

وقد روى في المسند والصحیحین ^(٢) مختصراً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي - مدحه النبي ﷺ على هذه الأناة ، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته مما لعله يسبق إلى الوهم أنه هم باسرة العزيز همًا يؤاخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له إلا يصبر فيه ، وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوافرة على الخروج منه ، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه من الهم ، أولى وأجدر - أفاده الناصر .

قال أبو السمود : وإنما لم يمرض لامرأة العزيز ، مع ما لقي منها ما لقي ، من مقاساة

(١) أخرجه البخاري في : ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ - باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ ، عن صفية ، زوج النبي ﷺ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٣٢٦ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي) :

وأخرجه البخاري في : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١١ - باب قوله عز وجل : وَبَدَّئُهُمْ

عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ، حديث رقم ١٥٩٣ .

وأخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٣٨ (طبعتنا) .

الأحزان ، محافظة على مواجب الحقوق ، واحترازاً عن مكرها ، حيث اعتقدتها مقيمة في عدوة العداوة ، وأما النسوة فقد كان يطمع في صدعهن بالحق ، وشهادتهن بإقرارها بأنها راودته عن نفسه فاستعصم ، ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطع الأيدي ، ولم يصرح بمراودتهن له ، وقولهن (أطع مولاناك) واكتفى بالإيحاء إلى ذلك بقوله : « إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ »
 يعني ما كدنه به . وفي إضافة علمه إلى الله إشارة إلى عظمه ، وأن كنهه غير مأمول الوصول إليه ، لكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله . وفيه تشويق وبعث على معرفته ، فهو تميم لقوله : (اسأل) ، ودلالة على أنه برىء مما قرف به ، للاستشهاد بعلمه تعالى عليه ، وفيه الوعيد لمن على كيدهن ، وأنه تعالى مجاز عليه . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥١] (قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

« قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ » استئناف مبني على السؤال ، كأنه قيل : فإذا كان بعد ذلك ؟ فقيل : قال الملك : ما خطبكم - أي شأنكم - إذ راودتن يوسف يوم الضيافة ؟ يعني : هل وجدتن منه ميلاً إليكم ؟

« قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ » أي قبيح . بالأن في نفي جنسه عنه بالتنكير ، وزيادة (من) « قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أي ثبت واستقر وظهر بعد خفائه ، « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » أي في قوله : هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي .

قال الزمخشري : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة ، والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن ، بأنه لم يتعلق بشيء مما قرفنه به ، لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق ، وهو على الباطل ، لم يبق لأحد مقال . انتهى - * والفضل ما شهدت به الأعداء *

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

« ذَلِكَ » تقول امرأة العزيز : ذلك الذي اعترفت به على نفسي « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » أي ليعلم يوسف أني لم أكذب عليه في حال الغيبة ، وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه ، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فاعترفت ليعلم أني بريئة .
« وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » أي لا يرضاه ولا يسدده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (وَمَا أُبْرِيٓ نَفْسِيٓ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۭ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

غَفُورٌ رَّحِيمٌ

« وَمَا أُبْرِيٓ نَفْسِيٓ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۭ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ » ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ : تريد : وما أبرئ نفسي مع ذلك ، فإن النفس تتحدث وتمنى ، ولهذا راودته . أو تعني : أني ما أبرئ نفسي من الخيانة ، فإنني قد خنته حين قرفته وقلت : مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ؟ وأودعته السجن . تريد الاعتذار مما كان منها أن كل نفس لأماراة بالسوء ، إلا نفساً رحمها الله بالمصمة ، كنفس يوسف .

ثم إن تأويل قوله تعالى : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ ...) الآية على أنه حكاية قول امرأة العزيز - قال ابن كثير : هو القول الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ، ومعاني الكلام . وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده بتصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف ، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم سواه . والمعنى : ذلك الثابت والثاني والتشمر لظهور البراءة ، ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب في أهله ، أو ليعلم الله أني لم أخنه ، لأن المعصية خيانة . ثم أكد أمانته بقوله :

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله عز وجل أمره ، أى : سدده وأحسن عاقبته . وفيه تعريض بامرأة العزيز فى خيانتها أمانته ، وبالعزيز فى خيانة أمانة الله تعالى ، حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبجالتها فى الأمانة معجباً ومفتخراً ، وليبين أن ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته ، فقال : (وَمَا أُبْرِيٓمُ نَفْسِي) أى لا أزهى من الزلل ، ولا أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزيها ، فإن النفس البشرية تأمر بالسوء ، وتحمل عليه بما فيها من الشهوات ، إلا مارحم الله من النفوس التى يعصمها من الوقوع فى المساوىء .

هذا خلاصة ما قرروه على أنه من كلام يوسف . قال ابن كثير : والقول الأول أقوى وأظهر ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك - والله أعلم - .

لطائف :

الأولى - محل قوله : (بِالغَيْبِ) الحال من الفاعل أو المفعول ، على معنى - وأنا غائب أو غائبة عنه، أو وهو غائب عنى خفى عن عيني . أو هو ظرف ، أى بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب .

الثانية - قيل : معنى (لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) أى : لا يهديهم بسبب كيدهم ، أوقعت الهداية المنفية على الكيد ، وهى واقعة عليهم تجوزاً ، للمبالغة ، لأنه إذا لم يهد السبب ، علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى .

وقيل : المعنى لا يهديهم فى كيدهم ، كقوله تعالى^(١) : (بِضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا) أى فى قولهم .

(١) [٩ / التوبة / ٣٠] .

وقيل : هداية الكيد مجاز عن تنفيذه وتسديده .

الثالث - قال في (الإكيل) : (وَمَا أُبْرِيٓ نَفْسِي) أصل في التواضع ، وكسر النفس وهضمها .

الرابعة - قال الزمخشري : لقد انفقت المبطله روايات مصنوعة - ثم ساقها - وقال : وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله .

قال الناصر : ولقد صدق في التوريك على نقلة هذه الزيادات بالبهت ، وذلك شأن المبطله من كل طائفة . ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل .

الخامسة - رأيت لابن القيم في (الجواب الكافي) في عجيب صبر يوسف وعفته ، مع الدواعي من وجوه ، قال عليه الرحمة ، بعد أن مهد مقدمة في مفاسد عشق الصور العاجلة والآجلة : إنها أضعاف ما يذكره ذاكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد فسدت الإيرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد . والله تعالى إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس : وهم اللوطية والنساء . فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف ، وما راودته ، وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف ، لصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه . فإن موافقة الفعل ، بحسب قوة الداعي ، وزوال المانع ، وكان الداعي ههنا في غابة القوة وذلك لوجوه :

أحدها - ما ركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ، ولا يصبر عن النساء . وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً بل يحمده .

الثاني - أن يوسف عليه السلام كان شاباً ، وشهوة الشباب وحدته أقوى .

الثالث - أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة .

الرابع - أنه كان في بلاد غربة يتأني للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يتأني لغيره في

وطنه ، وبين أهله ومعارفه .

الخامس - أن المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث أن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس - أنها غير آبية ولا ممتنعة ، فإن كثيراً من الناس يزيل وغبته في المرأة بإؤها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع زيادة حب ، كما قال الشاعر :

وزادني كلفاً في الحب أن مُنعت أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنعا

فطباع الناس مختلفة في ذلك : فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، وتضمحل عند إباتها وامتناعها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، ويشتد شوقه بكل ما منع ، ويحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة الظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره . واللذة بإدراك المسألة بعد استصعابها ، وشدة الحرص على إدراكها .

السابع - أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكففته مؤنة الطلب ، وذل الرغبة إليها ، بل كانت هي الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن - أنه في دارها ، وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى ، إن لم يطاوعها ، من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرغبة .

التاسع - أنه لا يخشى أن تنمى عليه هي ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هي الطالبة والراغبة ، وقد غلقت الأبواب ، وغيبت الرقباء .

العاشر - أنه كان مملوكاً لها في الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الأُنس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعي ، كما قيل لامرأة من العرب : ما حملك على كذا؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السواد . تعني : قرب وساد الرجل من وسادتي ، وطول السواد بيننا .

الحادي عشر - أنها استعانت عليه بأئمة المسكر والاحتتيال ، فارتته إياهن ، وشكت

حالهإ إليهن ، لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن ، فقال ^(١) : (وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) .

الثاني عشر - أنها توعده بالسنج والصفار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي السلامة ، من ضيق السجون والصفار .

الثالث عشر - إن الزوج لم يظهر من الغيرة والقوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلياً منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف ^(٢) : (أَعْرِضْ عَنْ هَذَا) ، وللرأه ^(٣) : (اسْتَفْزِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) . وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع ، وهنا لم يظهر منه غيرة .

ومع هذه الدواعي فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنى ، فقال ^(١) : (رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يمصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين . وهذا من كمال معرفته ربه وبنفسه . وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على ألف فائدة . انتهى كلام ابن القيم .

ثم أشار تعالى إلى ما امتن به على يوسف من رفع قدره بصره ، وإعلاء منزلته برحمته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)

« وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي » أي أخصه بها ، دون العزيز ، جرياً على عادة الملوك من الاستئثار بالنفيس العزيز . قال ذلك لما تحقق براءته مما نسب إليه ، وكرم

(١) [١٢ / يوسف / ٣٣] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٩] .

نفسه ، وسمة علمه . « فَلَمَّا كَلَّمَهُ » أى فلما أتوا به ، وكلّمه ، أى خاطبه الملك وعرفه ، وشاهد فضله وحكمته وبراعته - وجوّز أن يكون فاعل (كَلَّمَهُ) يوسف عليه السلام - « قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ » أى ذو مكانة ومنزلة « أَمِينٌ » أى مؤتمن على كل شىء . روى أن يوسف عليه السلام ، لما حضر الملك ، وعبر له رؤياه ابتهج بحديثه هو وخاصته ، وقال لهم : هل نجد مثله رجلاً مهبطاً للإمداد الربانى ؟ وقال ليوسف : بعد أن عرفك الله هذا فلا يكون حكيم مثلك ، وأنت على بيتى ، وإلى كلمتك تنقاد رعيتى ، ولا أكون أعظم منك إلا بعرضى ، وقد أقتك على جميع أرض مصر . ونزع خاتمه من يده ، ووضعها فى إصبعه ، وألبسه ثياب بزّ ، وجعل طوقاً من ذهب فى عنقه وأركبه مركبته ، وأمر أن يطاف به فى شوارع مصر ، وينادى أمامه بالخضوع له . وقال له الملك : لا يمضى أمر ، ولا ينفذ شأن فى مصر إلا برأيك ومشورتك ، وسماه مخلص العالم ، وزوجه بنت أحد العظماء لديه . وكان يوسف وقتئذ ابن ثلاثين سنة - والله أعلم - .

قال بعضهم : إن من أضمن النظر فى قصة يوسف عليه السلام ، علم يقيناً أن التقى الأمين لا يضيع الله سميه ، بل يحسن عاقبته ، ويعلى منزلته فى الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ، فإن الله يمضده ويُنَجِّح مسعاه ويخذل ذكره العاطر على ممر الأدهار ؛ فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيداً ، ولا للتجارب تهديداً ، ولم يخف للسجن ظلاماً وشرّاً ، ولا للتفكيك به الماء وضراً ، ألقى توكله على الرب ، وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب - نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ، ولسان الصدق طول أيام الدهر . وها إن فضيلته لم يعف جميل ذكرها مرور الأيام ، ولم يعبث بنضارتها كمرور الأعوام ، بل ادخرت لنا مثلاً لتقتفى أثره عند طرود التجارب ، وملاذا نعوذ به فى الحزن والمصائب ، ومقصدى نتدرب به على التثبت فى مواقف العثار ، ونهتج منهاجه فى التقوى وطيب الإزار ، فننال فى الدنيا سمة المجد ، ونفوز فى الآخرة بدار الخلد .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ » أى يوسف الملك « اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى ولسنى خزائن أرضك . يعنى جميع الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيمتصرف لهم على الوجه الأرشد والأصلح . ثم بين اقتداره فى ذلك فقال : « إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » أى أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف فيه .

قال الزمخشري . وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبية الملوك ممن يولونه .

وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا .

فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ، ويكون تبعاً له ، وتحت أمره وطاعته؟

قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم . وعن قتادة هو دليل على أنه يجوز أن يتولى

الإنسان عملاً من يد سلطان جائر . وقد كان السلف يقولون القضاء من جهة البغاة يروونه .

وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر

أو الفاسق ، فله أن يستظهر به .

وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه فى كل ما رأى ، فكان فى حكم

التابع له والمطيع . انتهى .

وهذه الآية أصل فى طلب الولاية كالتضاء ونحوه ، لمن وثق من نفسه بالقيام بحقوقه ،

وجواز التولية عن الكافر والظالم . وأصل فى جواز مدح الإنسان نفسه لمصالحته ، وفى

أن المتولى أمراً ، شرطه أن يكون عالماً به ، خبيراً ، ذكياً الفطنة - كذا فى (الإكمال) .

قال أبو السعود : وإنما لم يذكر إجابة الملك إلى ما سأله ، عليه السلام ، من جعله على

خزائن الأرض ، إيدانا بأن ذلك أمر لا مردّ له ، غنى عن التصريح ، لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بخدافيرها ، من قوله : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) ، وللتنبية على أن كل ذلك من الله عز وجل ، وإنما الملك آله في ذلك .

تنبيه :

قال ابن كثير : خزائن الأرض هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات . . . الخ . ولم أر الآن مستنده في كون الأهرام كانت يجمع الغلات ، ولم أفد عليه في كلام غيره . و (الأهرام) بفتح الهمزة ، جمع هَرَمٍ بفتححتين ، وهي مبان مربعة الدوائر ، مخروطية الشكل ، بقي منها الآن ثلاثة في الجزيرة ، بعيدة أميالاً عن القاهرة ، معدودة من غرائب الدنيا . دعيت لرواياها أيام رحاتي للديار المصرية عام ١٣٢١ هـ وقد استقر رأي المتأخرين في تحقيق شأنها على أنها كانت مدافن للموتى .

ففي كتاب (الأثر الجليل لقدماء وادي النيل) : جميع الأهرام ليست إلا مقابر ملوكية أثر أصحابها أن يتميزوا بها بعد موتهم عن سائر الناس ، كما تميزوا عنهم مدة حياتهم ، وتوخّوا أن يبقى ذكركم بسببها على تطاول الدهور ، وتراخي العصور . وقد أجمع مؤرخو هذا العصر على أن الهرم الأكبر قبر للملك (خوفو) ، والثاني للملك (خفرع) والثالث للملك (منقرع) وجميعهم من العائلة المنفيسية . ولا عبرة بقول من زعم أنها معابد أو مراصد للكواكب ، أو مدرسة للمعارف الكهنوتية ، أو غير ذلك . انتهى .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ » أي أرض مصر « يَتَّبِعُونَ مِنْهَا » أي ينزل

من بلادها « حَيْثُ يَشَاءُ » وذلك أنه عليه السلام لما وَّلاه النظر على خزائن مصر ، تجول في قطرها ، وطاف قراها، والأمر أمره ، والإشارة إشارته ، عناية منه تعالى ورحمة ، كما قال : « نَصِيبُ بِرِّحَمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى الذين أحسنوا عملاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

« وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » أى ثوابها خير من ثواب الدنيا للمؤمنين المتقين . إشارة إلى أن المطب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يدخر لهؤلاء هو أعظم وأجل مما يخولون به فى الدنيا من التمكين فى الأرض والجاه والثروة والمُلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ)

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » إشارة إلى ما وقع من مصداق رؤيا يوسف . وذلك أن الأرض أخصبت سبع سنين ، وأخرجت من بركتها ما يعادل رمل البحر كثرة ، فجمع يوسف غلالها ، وجعل فى كل مدينة غلال ما حولها من الحقول ، ولما مضت هذه السبع ، دخلت السنون المجذبة ، فعمّ القحط مصر والشام ونواحيهما ، فأخذ الناس ، من سائر البلاد ، فى المسير إلى مصر ليمتاروا منها ، لأنفسهم وعيالهم ، لما علموا من وجود القوت فيها . وكان من جملة من سار للميرة إخوة يوسف ، عن أمر أبيهم يعقوب ، لتناول القحط بلادهم - فلسطين - فركبوا عشرة نفر ، واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين ، شقيق يوسف ، خشية أن يلحقه سوء ، وكان أحب ولده إليه بمد يوسف . فلما هبطوا مصر ، دخلوا على يوسف ، ولم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقة إيائهم فى سن الحداثة ، وعدم استشعارهم فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، وأما هو فعرفهم . روى أنهم لما دخلوا عليه

سجدوا له بوجوههم إلى الأرض ، تحية له فشرع يخاطبهم متنكراً لهم ، وقال : من أين قدمتم ؟ قالوا : من أرض كنعان ، لنبتاع طعاماً . فقال لهم : أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسبوا ثغور الأرض ! قالوا : معاذ الله ! ما جاء عبيدك إلا للميرة ، لأن الجهد أصابنا ، ونحن إخوة ، بنو أب واحد . قال : كم أنتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، هلك منا واحد . قال : فكم أنتم هاهنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الحادي عشر ؟ قالوا : هو عند أبيه ينسلي به من الهالك . قال : لا بد من امتحان صدق كلامكم ، فليبق واحد منكم عندى رهينة ، ولتذهب بقيتكم ، فتأخذ ميرة لمجاعة أهلكم ، وأتوا بأخيكم الصغير إلى ، ليتحقق صدقكم . ثم أخذ شمعون ، واحتبسه عنده ، وأذن للبقية ، وأمر أن يمطوا زاداً للطريق ، وهذا ما أشير إليه في قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ)

«وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ» بفتح الجيم ، وقرئ بكسرها ، أى أوقر ركائبهم بالطعام والميرة . «قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ» أى آتمه «وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ» أى المضيفين وقوله ذلك ، تحريض لهم على الإنيان به ، لا امتنان .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» أى فيما تستقبلون ، «وَلَا تَقْرَبُونِ» أى ولا تقربوني بدخول بلادى مرة ثانية . فإلياء محذوفة ، والنون نون الوقاية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ)

« قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ » أى سنخادعه ونحتال فى انتزاعه من يده ، ونجتهد فى ذلك .
وفيه تنبيه على عزة المطلب ، وصعوبة مناله - قاله أبو السعود - « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » أى ذلك .
يعنون المرادة ، أو الإتيان به ، فيكون ترقياً إلى الوعد بتحصيله بعد المرادة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ » أى لخدمته الكياليين : « اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » يعنى ببضاعتهم ، ما شروا به الطعام . روى أنها كانت فضة . أى اجعلوها فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . « لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا » أى لىكى يعرفونها ، « إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ » أى وفتحوا أوعيتهم ، « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى حسباً أمرتهم به ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ)

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ » أى أنذرنا بمنعه بعد هذا ، إن لم نأت بأخيها ، « فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكَتْلُ » أى نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما محتاج إليه ، وقرئ (يكتل) بالتحقيق أى أخونا لنفسه مع اكتيالننا ، « وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ » أى من أن يناله مكروه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (قَالَ هَلْ أَمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ، فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ » أى يعقوب لهم « هَلْ أَمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ » أى من قبله ، يوسف . معنى : هل أقدر أن آخذ عليكم العهد والميثاق ، أكثر مما أخذت عليكم في يوسف ، وقد قلتم ^(١) : (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ثم ختمتم بضمائكم ؟ فما يؤمننى من مثل ذلك ؟ فلا أتق بكم ، ولا بحفظكم ، وإنما أفوض الأمر إلى الله « فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا » أى منكم ومن كل أحد « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » أى أرحم من والديه وإخوته ، فأرجو أن يرحمنى بحفظه . وهذا ميل منه إلى الإذن في إرساله معهم لما رأى فيه من المصلحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ، هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ)

« وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ » أى وجدوا دراهمهم ، ثمن طعامهم في متاعهم .

روى أن أحدهم فتح متاعه ليأخذ علفاً لدابته ، فرأى فضته في فم متاعه فقال لإخوته : قد ردت دراهمى وهامى في متاعى ثم لما وصلوا كنعان ، وأخذوا يفرغون أوعيتهم ، وجد كل واحد منهم صرة دراهمه في وعائه ، فاستطارت قلوبهم ، ودهشوا ، وحمدوا عناية الله بهم .

« قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي » أى ما ذا نبتغى وراء ذلك ؟ هل من زيادة ؟ أى : لا مزيد على ما فعل ، لأنه أكرمنا ، وأحسن مثوانا ، بإزائنا عنده ، ورد الثمن علينا . والقصد إلى

(١) [١٢ / يوسف / ١٢]

استغزاه عن رأيه . أو : لا نبغى فى القول ولا نكذب فيما حكينا لك ، من إحسانه الداعى إلى امتثال أمره . أو : ما نبغى وما نطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا . وقرئ على الخطاب . أى : أى شىء تطلب وراء هذا من الدليل على صدقنا ؟
 « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » جملة مستأنفة موضحة لما دل عليه الإنكار من بلوغ اللطف غايته ، كأنهم قالوا : كيف لا ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلاً من حيث لا ندرى ؟

« وَنَمِيرُ أَهْلَنَا » معطوف على مقدر مفهوم . أى : فنستظهر بها ، ونمير أهلنا إذا رجعنا إلى الملك . أى : نأتمهم بيرة ، أى بطعام . يقال : (ماره) أناه بطعام ومنه : (ما عنده خير ولا مير) .

« وَنَحْفَظُ أَخَانَا » أى : فلا يصيبه شىء مما تخافه « وَنَزِدَادُ كَيْلِ بَعِيرٍ » أى باستصحابه « ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ » أى سهل على هذا الملك المحسن لسخائه ، فلا يضايقنا فيه . أو المعنى قصير المدة ، ليس سبيل مثله أن تطول مدته بسبب الجبس والتأخير . أو المعنى : ذلك الذى يكال لنا دون أخينا شىء يسير قليل ، فابعث أخانا معنا حتى نتسمع وتتكثر بمكياله .

وقال ابن كثير : هذا من تمام الكلام وتحسينه . أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيه لا يعدل هذا . فلا يكون من كلامهم ، والجملة محتملة للكل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ)

« قَالَ » أى لهم أبوهم « لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ » أى بهذه المقالة « حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ » أى عهداً منه ، ويميناً به ، لتردته على « إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ » أى

تغلبوا كلكم ، فلا تقدرّون على تحايضه . وأصله من : (أحاط به العدو) سدّ عليه مسالك النجاة ودنا هلاكه .

« فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ » أى شهيد رقيب . والقصد حثهم على ميثاقهم بتخويفهم من نقضه بمجازاة تعالى .

قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى بهم عنها .

لطيفة :

قال الناصر : ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم : (البلاء موكل بالمنطق) فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً فى حق يوسف ^(١) : (وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ) فابتلى من ناحية هذا القول . وقال هاهنا ثانياً : (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أى تغلبوا عليه ، فابتلى أيضاً بذلك ، وأحيط بهم وغلبوا عليه . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمْتُكُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ)

« وَقَالَ » أى أبوه : « يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » أى اثلاً يستلقت دخولهم من باب واحد ، أنظار من يقف عليه من الجند ، ومن يعسّ للحاكم ، فيريب بهم ، لأن دخول قوم على شكل واحد ، وزى متجدد ، على بلدهم غرباء عنه ، مما يلفت نظر كل راصد . وكانت المدن وقتئذ مبوّبة لا ينفذ إليها إلا من أبوابها ،

(١) [١٢ / يوسف / ١٣] .

وعلى كل باب حرسه ، وليس دخول الفرد كدخول الجمع في التنبيه ، واتباع البصر . وقيل :
 نهاهم لثلاث تصيبيهم العين إذا دخلوا كوكبة واحدة - وسيأتي بيانه - .
 « وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » أى لا أدفع عنكم بتدبيرى شيئاً مما قضى
 عليكم ، فإن الحذر لا يمنع القدر .

قال أبو السعود: ولم يرد به عليه السلام إلقاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عزّ قائلًا^(١):
 (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) وقال^(٢): (خُذُوا حِذْرَكُمْ) . بل أراد بيان أن
 ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة ، بل هو تدبير فى الجملة . وإنما التأثير وترتيب
 المنفعة عليه من العزيز القدير ، وإن ذلك ليس بمدافعة للقدر ، بل هو استعانة بالله تعالى ،
 وهرب منه إليه . « إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا اللَّهُ » أى لا يشاركه أحد ، ولا يمانعه شيء « عَلَيْهِ
 تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٨] (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُفْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَّمَهَا
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ » أى : من الأبواب المتفرقة « مَا كَانَ » أى
 ذلك الدخول « يُفْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا »
 أى أبداها ، « وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَّمَهَا » أى : علم جليل ، لتعليمنا إياه بالوحي ، ونصب
 الأدلة ، حيث لم يمتقد أن الحذر ، يدفع القدر ، وأن التدبير ، له حظ من التأثير . وفى تأكيد
 الجملة بـ (إن) و (اللام) وتنكير العلم ، وتعليقه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه ، من الدلالة

(١) [٢ / البقرة / ١٩٥] . (٢) [٤ / النساء / ٧١ و١٠٢] .

على شأن يعقوب عليه السلام ، وعلو مرتبة علمه ونخامته ، مالا يخفى - أفاده أبو السعود - .
 « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى فيظنون الأسباب مؤثرات .
 قال ابن حزم فى (الملل) : كان أمر يعقوب عليه السلام بدخولهم من أبواب متفرقة ،
 إشفاقاً عليهم ، إمامن إصابة العين ، وإمامن تمرض عدو ، أو مستريب بإجماعهم ، أو ببعض
 ما يخوفه عليهم . وهو عليه السلام معترف أن فعله ذلك ، وأمره إياهم بما أمرهم به من ذلك ،
 لا يفتى عنهم من الله شيئاً يريد عز وجل بهم . ولكن لما كانت طبيعة البشر جارية فى
 يعقوب عليه السلام ، وفى سائر الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى حاكماً عن الرسل أنهم
 قالوا^(١) : (إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) حملهم ذلك على بعض النظر المخفف لحاجة النفس
 ونزعها وتوقفها إلى سلامة من تحب ، وإن كان ذلك لا يفتى شيئاً ، كما كان عليه السلام^(٢)
 يجب الفأل الحسن .

تنبيه .

قال السيوطى فى (الإكمال) : فى هذه الآية - على ما روى عن ابن عباس ومجاهد
 وغيرها - أن العين حق^(٣) ، وأن الحذر لا يرد القدر . ومع ذلك لا بد من ملاحظة
 الأسباب . انتهى .

وقال بعض اليمانيين : لهذه الجملة ثمرات وهى : استحباب البعد عن مضار العباد ،
 والحذر عنها . فأما فعل الله تعالى فلا يفتى الحذر عنه . ثم قال : وفى (التهذيب) أن أبا على
 أنكر الضرر بالعين ، وهو مروى عن جماعة من المتكلمين .
 وصحح الحاكم والأمير الحسين وغيرها جواز ذلك ، لأخبار وردت فيها .

(١) [١٤ / إبراهيم / ١١] . (٢) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب الطب ،
 ٤٤ - باب الفأل ، حديث ٢٢٦٨ ، عن أنس . (٣) أخرجه البخارى فى : ٧٦ - كتاب
 الطب ، ٣٦ - باب العين حق ، حديث ٢٢٦٣ ، عن أبى هريرة .

ثم قال : واختلاف من أين أنت المضرة الحاصلة بالمين . فن قائل : بأنه يخرج من عين العائن شعاع يتصل بمن يراه ، فيؤثر فيه تأثير السم . وضمفه الحاكم بأنه لو كان كذلك ، لما اقتص ببعض الأشياء دون بعض ، ولأن الجواهر متماثلة ، فلا يؤثر بعضها في بعض . ومن قائل : بأنه فعل العائن . قال : وهذا لا يصح ، لأن الجسم لا يفعل في جسم آخر شيئاً إلا بمهاسمته ، أو ما في حكمها من الاعتمادات ، ولأنه لو كان فعلاً ، وقف على اختياره . ومن قائل : بأنه فعل الله ، أجرى الله المادة بذلك لضرب من الإصلاح . وصحح هذا الحاكم ، وهو الذي ذكره الزمخشري والأمير الحسين ، وهو قول أبي هاشم ، ذكره عنهما في (التهذيب) انتهى .

وقد أوضحه الرازي بقوله : قال أبو هاشم وأبو القاسم البلخي : إنه لا يمنع أن تكون العين حقاً ، ويكون ممناه أن صاحب العين إذا شاهد الشيء وأعجب به استحساناً كان المصلحة له في تكليفه أن يغير الله ذلك الشخص ، وذلك الشيء حتى لا يبقى قلب ذلك المكلف متملقاً به ، فهذا المعنى غير ممتنع . ثم لا يبعد أيضاً أنه لو ذكر ربه عند تلك الحالة ، وعذب عن الإعجاب ، وسأل ربه أن يقيه ذلك ، فعنده تميم المصلحة . ولما كانت هذه المادة مطردة ، لا جرم قيل : العين حق . انتهى .

أقول : وقد بسط الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) هذا البحث بما يشفي ويكفي ، في (بحث هديه عليه صلوات الله في علاج العين) بعد إرادته ما روى في الصحيحين وغيرها من حقيقة العين ، وشهرة تأثيرها عند العرب ، قال :

فأبطلت طائفة ممن قلّ نصيبهم من السمع والعقل ، أمر العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حججاً ، وأكثرهم طباعاً ، وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس ، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا يدفع أمر العين ولا ينكره ، وإن اختلفوا في

سببه ، وجهة تأثير العين ، فقالت طائفة : إن المائن إذا تسكيفت نفسه بالكيفية الردية ، انبعثت من عينه قوة سمية ، تتصل بالعين فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعثت قوة سمية من الأنفى تتصل بالإنسان فيهلك ، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعى أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك المائن .

وقالت فرقة أخرى : لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة ، غير مرئية ، فتتصل بالعين ، وتتخلل مسام جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله المادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين المائن لمن يعينه ، من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلاً . وهذا مذهب منكرى الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم . وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة ، وجمل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس . وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحشمه . ويستحجي منه ، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه ، إليه . وقد شاهد الناس من يسقم من النظر ، وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح . ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها ، وليست هي الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بيناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستميذ به من شره . وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تسكيف بكيفية خبيثة تقابل المحسود فتؤثر فيه بتلك الخاصية . وأشبه الأشياء بهذا ، الأنفى . فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلت عدوها انبعث منها قوة غضبية ، وتسكيفت نفسها بكيفية خبيثة مؤذية فمنها ما تشدد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط

الجنين ، ومنها ما يؤثر في طمس البصر . كما قال ﷺ^(١) في الأبر وذى الطفتين من الحيات :
 إنهما يلتمسان البصر ، ويستقطان الحبل . ومنها ما يؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من
 غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة . والتأثير غير موقوف على
 الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قل علمه ، ومعرفته بالطبيعة والشريعة ، بل التأثير يكون تارة
 بالانصل ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية
 والرقى والتعوذات ، وتارة بالوهم والتخيل . ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل
 قد يكون أعمى فيوصف له الشيء ، فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر في
 المئين بالوصف من غير رؤية ، وقد قال الله تعالى لنبيه^(٢) : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ) وقال^(٣) : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ
 غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) . فشكل عائن
 حاسد ، وليس كل حاسد عائناً . فلما كان الحاسد أعم من العائن ، كانت الاستعاذة منه
 استعاذة من العائن ، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعين نحو المحسود والمئين ، تصيبه
 العين تارة ، وتخطئه تارة ، فإن صادفته مكشوفاً لا وقاية عليه أرت فيه ، ولا بد . وإن
 صادفته حذراً ، شاكى السلاح ، لا منفذ فيه للسهام ، لم تؤثر فيه ، وربما ردت السهام على
 صاحبها . وهذا بمثابة الرمي الحسى سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وهذا من الأجسام
 والأشباح . وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم يتبعه كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على
 تنفيذ سمها بنظرة إلى المئين . وقد يعين الرجل نفسه ، وقد يعين بغير إرادته ، بل بطبعه . وهذا
 أردأ ما يكون من النوع الإنساني . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : إن من عُف

(١) أخرجه أبو داود في : ٤٠ - كتاب الأدب ، ١٦٢ - باب في قتل الحيات ، حديث

٥٢٥٢ ، عن ابن عمر . (٢) [٦٨ / القلم / ٥١] . (٣) [١١٣ / الفلق / ١ - ٥] .

بذلك ، حبسه الإمام ، وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت . وهذا هو الصواب قطعاً . انتهى كلام ابن القيم ، عليه الرحمة .

وقال الرازى : ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة ، أعنى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، بل قد يكون التأثير نفسانياً محضاً ، ولا يكون للقوى الجسمانية بها تعلق ، والذي يدل عليه أن اللوح الذي يكون لقليل العرض ، إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشى عليه ، ولو كان موضوعاً فيما بين جدارين عالين لمعجز الإنسان عن المشى عليه . وما ذاك إلا لأن خوفه من السقوط منه يوجب سقوطه ، فلهنا أن التأثيرات النفسانية موجودة . وأيضاً إن الإنسان إذا تصور كون فلان مؤذياً له ، حصل في قلبه غضب ، ويسخن مزاجه جداً ، فبدأ تلك السخونة ليس إلا لذلك التصور النفساني ، ولأن مبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية ، فلما ثبت أن تصور النفس يوجب تغير بدنه الخاص ، لم يبعد أيضاً أن يكون بعض النفوس بحيث تتعدى تأثيراتها إلى سائر الأبدان ، فثبت أنه لا يمتنع في العقل كون النفس مؤثرة في سائر الأبدان . وأيضاً جواهر النفوس مختلفة بالماهية ، فلا يمتنع أن يكون بعض النفوس بحيث يؤثر في تغيير بدن حيوان آخر ، بشرط أن يراه ، ويتمعجب منه . فثبت أن هذا المعنى أمر محتمل ، والتجارب من الزمن الأقدم ساعدت عليه ، والنفوس النبوية نطقت به . فمنده لا يبق في وقوعه شك ، وإذا ثبت هذا ، ثبت أن الذي أطبق عليه المتقدمون من المفسرين في تفسير هذه الآية بإصابة العين ، كلام حق . لا يمكن رده . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يخبر سبحانه بأن إخوة يوسف لما قدموا عليه ، ضم إليه أخاه ، بنيامين ، إما على الطعام ، أو في المنزل ، وأعلمه بأنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس . أى لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى ، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا ، وجمعنا بخير .

وقد روى أنهم لما قدموا عليه ، ووقفوا بين يديه ، رأى أخاه بنيامين معهم ، فأمر بإزالتهم في بيته ، وحلولهم في كرامته وضيافته ، وحضورهم معه في غدائه . ثم دخل عليهم فقاموا وسجدوا له ، وسألهم عن سلامة أبيهم ، ورفع طرفه إلى أخيه ، فأدناه وآواه إليه ، وآنسه بحديثه . كما ذكر في الآية - ثم أراد يوسف أن يحتال على بقاء أخيه عنده ، فتواطأ مع فتياته ، إذ جهز إخوته ، أن يضعوا سقايته في رحل أخيه ، كما بينه تعالى بقوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتَهَا الْعِيرُ إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ)

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ » أى من الطعام « جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ » وهى جام فضة يشرب به يوسف ، وضعه في ميرة أخيه .

وقد روى أن يوسف لما جهزهم وأرتحلوا ، أمهاتهم حتى انطلقوا وبعدوا قليلاً عن المدينة ، ثم أمر أن يسمى في إرهم ، ويؤذنون بما فقد ، كما أشار إليه تعالى بقوله : « ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْتَهَا الْعِيرُ إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ)

[٧٢] (قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ)

« قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ »

« قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ » معنى (أذن)

نادى . يقال : آذته : أعلمه ، وأذن أكثر الإعلام ، ومنه (المؤذن) لكثرة ذلك منه .
(العير) : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير ، أى تذهب وتجيء ، وهو اسم جمع للإبل ،
لا واحده ، فأطلق على أصحابها . وقيل : هى قافلة الحمير ، ثم كثر حتى قيل لكل قافلة
(عير) . و (الصواع) هو السقاية المتقدمة ، إناء فضة .

تنبيه :

قال فى (الإكليل) : فى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى المباح ، وما فيه الغبطة
والصلاح ، واستخراج الحقوق .

قال ابن العربى : وفى إطلاق السرقة عليهم ، وليسوا بسارقين ، جواز دفع الضرر بضرر
أقل منه .

وقوله تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » أصل فى الجمالة .

وقوله : (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أصل فى الضمان والكفالة . انتهى .

ولما أهمهم المؤذن ومن معه من الفتيان :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ » أى ما جئنا

للسرقة ، أو لطلق فساد ، وإنما جئنا للميرة ، وما كنا نوصف بالسرقة . وإنما استشهدوا
بعلمهم على براعتهم ، لما تيقنوه من حلهم ، فى كرتن مجيئهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)

[٧٥] (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

« قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ » أى السارق « إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ » .

« قَالُوا » أى لثقتهم ببراءتهم « جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ » أى جزاء

سرقتهم ، أخذ من وجد في رحله رقيقاً . وهو قولهم : (فَهُوَ جَزَاؤُهُ) تقرير لذلك الحكم وإلزامه ،

أى : فأخذ جزاؤه لا غيره . ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبدئاً ، والجملة الشرطية كما هي

خبره ، على إقامة الظاهر مقام المضمرة والأصل جزاؤه من وجد في رحله فهو هو .

« كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ » أى بالسرفة ، تأكيد إثر تأكيد ، وبيان لقبح السرفة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ

كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ

دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

« فَبَدَأَ » أى فتى يوسف « بِأَوْعِيَّتِهِمْ » أى ففتشها « قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ » أى بنيامين ،

نفيًا للهمة « ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا » أى السقاية « مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ »

أى دبرنا للتحصيل غرضه « مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ » أى شرعه وقانونه .

والجملة استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه . أى : ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك ،

فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق ، لإيصال يوسف إلى أربه ، رحمة منه وفضلًا .

وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك ، وإلا ، لاستبد بما شاء ، وهذا من وفور

فطنته ، وكال حكمته . ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (ديناً) لها والآيات في ذلك كثيرة .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » يعني : أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتديره ، لأن ذلك كله كان إلهاماً من الله ليوسف وإخوته ، حتى جرى الأمر وفق المراد .

« نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِهِ » أى بالعلم ، كما رفعنا يوسف . وفي إشار صيغة الاستقبال إشعار بأن ذلك سنة إلهية مستمرة ، غير مختصة بهذه المادة .

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ » أى من أوائك المرفوعين « عَلَيْهِم » أى فوقه أرفع درجة منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ

وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ)

« قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » هذا تنصل منهم إلى العزيز بالتشبيه به .

أى : إن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف .

« فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ » قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا « أى منزلة ،

حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ، ثم طفقتم تفترون على البرى .

« وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ » أى من أمر يوسف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا

نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ » ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ « لما تمين أخذ بنيامين وإبناؤه عند يوسف بمقتضى فتوأم ، طفقوا يعطفونه

عليهم ، بأن له أبا شيخاً كبيراً يحبه حباً شديداً يتسلى به عن أخيه المفقود ، نخذ أحداً بدله رقيقاً عندك .

قال بعضهم : الفقه من هذه الجملة أن للكبير حقاً يتوسل به ، كما توسلوا بكبر يعقوب . وقد ورد في الاستسقاء إخراج الشيوخ . انتهى .

وفي ما عزموا عليه لإيقاد أخيه من شرك العبودية ، المقضى عليه بها ، ما يشف عن حسن طوية ، ووفاء بالوعد ، وبعرب عن أمانة ، وصدق بر ، وشدة تمسك بموثق أبيهم ، محافظة على رضاه وإكرامه ، وهكذا فليتمسك البارّ بمرضاة أبيه .

وقولهم : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) أى إيلينا ، فأتمم إحسانك بهذه التهمة . أو من المتعودين بالإحسان ، فليكن هذا منه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ)
 « قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » أى إن أخذنا بريئاً بمتهم ، لأنه لا يؤخذ أحد بجرم غيره . قال بعضهم : إلا ما ورد فى العقل .
 وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (فَلَمَّا اسْتَمْتَأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوَاقِفًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)
 « فَلَمَّا اسْتَمْتَأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أى يتسوا من يوسف وإجابته لهم أشد بأس .
 كما دل عليه (السين والتاء) فإنهما يزدان فى المبالغة .

قال أبو السمود : وإنما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس ، لما شاهدوه من عوده بالله لما طلبوه ، الدالّ على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة ، وأنه مما يجب أن يحترز عنه ، ويماذ بالله عز وجل ، ومن تسميته «ظلماً» بقوله : (إنا إذا لظالمون) . و (خلصوا) بمعنى اعترلوا وانفردوا عن الناس ، خالصين ، لا يخاطبهم سواهم . و (نجياً) حال من فاعل (خلصوا) أى : اعترلوا في هذه الحالة مناجين . وإنما أفردت الحال ، وصاحبها جمع ، إما لأن النجى (فعل) بمعنى (مفاعل) ، كالعشير والخليط ، بمعنى المعاشر والمخالط ، كقوله (١) : (وقرّبناه نجياً) أى مناجياً ، وهذا في الاستعمال بفرده مطلقاً . يقال : هم خليطك وعشيرك ، أى مخالطوك ومعاشروك . وإما لأنه صفة على (فعل) بمنزلة صديق ، وبابه . فوحد لأنه بزنة المصادر ، كالصهيل والوحيد والذميل . وإما لأنه مصدر بمعنى التناجى ، أطلق على المتناجين مبالغة ، أو لتأويله بالمشتق : والمصدر ، ولو بحسب الأصل ، يشمل القليل والكثير . وتزويل المصدر منزلة الأوصاف أبلغ في المعنى ، ولذا قال الزمخشري : وأحسن منه - أى من تأويل (نجياً) بدوى نجوى أو فوجاً نجياً أى مناجياً - أنهم تمحضوا تناجياً لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه ، بجد واهتمام ، كأنهم في أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم في تدبير أمرهم على أى صفة يذهبون ، وما يقولون لأبيهم في شأن أخيه ؟ كقوم تمايوا بمادهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور . انتهى .

لطيفة:

ذكر القاضي عياض في (الشفاء) في (بحث إعجاز القرآن) : أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ : فلما استيأسوا منه خلسوا نجياً ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وقال الثعالبي في كتاب (الإيجاز والإعجاز) في الباب الأول : من أراد أن يعرف

(١) [١٩ / مريم / ٥٢] .

جوامع السلام، وينتبه لفضل الاختصار ، ويحيط ببلاغة الإيحاء ، ويفطن لكفاية الإيجاز ، فليقدّر القرآن ، وليتأمل علوّه على سائر الكلام .

ثم قال : فن ذلك قوله عز ذكره ، في إخوة يوسف (فلما استأيسوا منه خلصوا نجياً) ، وهذه صفة اعتزلهم جميع الناس وتقلّيبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث . فتضمنت تلك الكلمات القصبة معاني القصة الطويلة .

وقوله تعالى : « قَالَ كَبِيرُهُمْ » أي في السن ، كما هو المتبادر ، وهو ، فيما يروى ، (رُوْبِين) ، « أَلَمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِقًا مِّنَ اللَّهِ » أي عهداً وثيقاً في ردّ أخيكم ، وإنما جعل منه تعالى لكون الحلف كان باسمه الكريم . « وَمِنْ قَبْلُ » أي قبل هذا « مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ » أي قصرتم في شأنه و (ما) إما مزيدة ، و (من) متعلق بالفعل بعده ، والجملة حالية . وإما مصدرية في موضع رفع بالابتداء و (من قبل) خبره . أو في موضع نصب عطفاً على معمول (تعلموا) . وإما موصولة بالوجهين ، أي : قدمتموه في حقه من الخيانة ، ولم تحفظوا عهد أبيكم ، بعد ما قلتم ^(١) (وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) (وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ) ^(٢) .

« فَلَنَ أَبْرِحَ الْأَرْضَ » أي : فلن أفارق أرض مصر « حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي » أي في الرجوع « أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي » أي بالخروج من مصر ، أو بخلص أخي بسبب ما . « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل . ثم أمر كبيرهم أن يخبروا أباهم بما جرى ، فقال .

(١) [١٢ / يوسف / ١١] (٢) [١٢ / يوسف / ٦٣] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨١] (ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ)

« ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ » أى : نُسِبَ إِلَى السَّرِقَةِ صَوَاعِ الْمَلِكِ ، « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا » أى مَا شَهِدْنَا عَلَيْهِ بِالسَّرِقَةِ ، إِلَّا بِمَا تَقْنَنَاهُ مِنْ إِخْرَاجِ الصَّوَاعِ مِنْ رِحْلِهِ .

تنبیه :

استنبط بعضهم من هذا عدم حواز الشهادة على الكتابة بلا علم وتذكر . وكذا من سمع كلامه من وراء حجاب ، لعدم العلم به - كذا في الإكليل - ولا يخفى أن مثل هذا مما يستأنس به في مواقع الخلاف .

« وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » أى : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)

« وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا » يَمْنُونُ مِصْرَ . أى : أَرْسَلَ إِلَى أَهْلِهَا فَسَلِمَهُمْ عَنْ كُنْهَةِ الْقِصَّةِ . « وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » أى جِئْنَا مَعَهَا . وَكَانَ صَحْبَهُمْ قَوْمٌ مِنْ كِنَمَانَ « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » أى فَمَا أَخْبَرْنَاكَ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ

يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا » معناه : فَرَجَعُوا إِلَى آبَائِهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ مَا قَالَهُمْ آخِرُهُمْ . فَقَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ ، أى زَيْتٌ وَسَهَاتٌ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، ففعلتموه .

لطيفة .

قال الزمخشري : أمراً أردتموه ، وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقتة ،
لولا فتواكم وتعاييمكم .

قال الناصر: هذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال ، كان قائلاً يقول : هم في الواقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مرأ ، وأما في هذه الواقعة الثانية ، فلم يتمدوا في حق بنيامين سوءاً ، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جليته ، وما تركوه بمصر إلا مغلوبين عن استصحابه ، فما وجه قوله ثانياً (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) كما قال لهم أولاً ؟ وإذا ورد السؤال على هذا التقرير ، فلا بد من زيدٍ بسط في الجواب ، فنقول : كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين ، وهم قَمِينٌ باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام، وقامت عنده قرينة تؤكّد نفي التهمة وتقويها ، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده ، لا من دين غيره من الناس ، ولا من عاداتهم . وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى^(١) : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم ، فعلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به ، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تمعداً ليتخلف أخوهم ، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة ، فذكروا ما عندهم ، ولم يشعروا أن المقصود إزامهم بما قالوا . واتهام من هو بحيث تنطرق التهمة إليه لا حرج فيه ، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد . ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم ، أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله ، سرقة ، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم . وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة عليه - والله أعلم - .

وقوله : (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) واقع بما كانه من حالهم ، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا ، فالعمدة على الجواب الأول . اهـ .

(١) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وقوله تعالى : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » أى : بلا جزع « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا » أى بيوסף وأخيه المتوقف بمصر ، فتذهب أحزانه بمرّة واحدة « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » أى العليم بحالى وحالمه ، الحكيم فى تشديد الأمر لينظر مقدار الصبر ، فيفيض بقدره الأجر ، ومن الأجر المجل تمجيل الفرج .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَٰسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)

« وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض « عَنْهُمْ » أى عن بنيه كراهة لما جاءوا به « وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يَٰسُفَ » أى يا حزنى الشديد ! و (الألف) بدل من ياء المتكلم للتخفيف ، وقيل : هى ألف الندبة ، والهاء محذوفة . و (الأسف) أشد الحزن والحسرة على ما فات . وإنما تأسف على يوسف دون أخويه ، والحادث رزاها . والرزة الأحدث أشد على النفس ، وأظهر أثرًا - لأن الرزة فى يوسف كان قاعدة مصيباته التى ترتبت عليها الرزايا فى ولده ، فكان الأسف عليه أسفًا على من لحق به ، ولأنه لم يزل عن فكره ، فكان غضًا طريًا عنده ، كما قيل (١) : * ولم تُنْسِنِ أَوْقَى الْمَصِيبَاتِ بُعْدَهُ * وَكُلُّ جَدِيدٍ يُدَكَّرُ بِالْقَدِيمِ . ولأنه كان واثقًا بحياتهما - دون حياته .

(١) ليس هكذا النص . ولا يمكن فهمه بغير ما قبله . وهو قوله :

نَعَى الرَّكْبُ (أَوْقَى) حِينَ آبَتْ رِكَابُهُمْ	لعمرى لقد جاءوا بشرًا فأوجعوا
نَمَوْا بِاسْقِ الْأَخْلَاقِ لَا يَخْلَفُونَهُ	تكاد الجبال الصمّ منه تصدّع
فَعَزِيزٌ عَنِ (أَوْقَى) (غَيْلَانَ) بُعْدَهُ	عزاء وجفن العين بالماء مُتْرَعُ
وَلَمْ تُنْسِنِ (أَوْقَى) الْمَصِيبَاتُ بُعْدَهُ	ولكن نكء القرح بالقرح أوجع

وقائلها هشام ، أخوذى الرمة وغيلان هو ذوالرمة . انظر : ص ٢٢٣ من الجزء الأول ،

من كامل المبرد (طبعة الحلبي) .

«وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ» وذلك لكثرة بكائه .

قال الزمخشري : إذا كثرت الاستعمار محقت العبرة سواد العين ، وقلبته إلى بياض كدر .
« فَهُوَ كَظِيمٌ » أى مملوء من الغميط على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم . (فعليل) بمعنى (مفعول) كقوله ^(١) (وَهُوَ مَكْظُومٌ) أو بمعنى شديد التجرع للغميط أو الحزن ، لأنه لم يشكه إلى أحد قط . فهو بمعنى (فاعل) .

تنبیه :

دلت الآية على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره ، وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن .

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال ^(٢) : إن العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .
وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .

وعن الحسن أنه بكى على ولد ، أو غيره فقيل له في ذلك ؟ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب .
وقوله تعالى :

(١) [٦٨ / القلم / ٤٨] . (٢) أخرجه البخارى في : ٢٣ - كتاب الجنائز ، ٤٤ -

باب قول النبي ﷺ (إنا بك لمحزونون) ، حديث ٦٩٢ ، عن أنس .

وأخرجه مسلم في : ٤٣ - كتاب الفضائل ، ١٥ - باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال ، وتواضعه وفضل ذلك ، حديث رقم ٦٢ (طبعتمنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتُوۡا تَذَكَّرُ يُوۡسُفَ حَتّٰى تَكُوۡنَ حَرَصًا اَوْ تَكُوۡنَ مِنَ الْهَالِكِيۡنَ)

« قَالُوا » أى اولاد يعقوب ، لأبهم على سبيل الرفق به ، والشفقة عليه : « تَاللّٰهِ تَفْتُوۡا تَذَكَّرُ يُوۡسُفَ حَتّٰى تَكُوۡنَ حَرَصًا » أى مريضاً مشفقاً على الهلاك ، « اَوْ تَكُوۡنَ مِنَ الْهَالِكِيۡنَ » أى بالموت . يقولون : إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف . واستدل به على جواز الحلف بغلبة الظن . وقيل : إنهم علموه ، لكنهم نزلوه منزلة المنكر ، فلذا أكدوه . و (تفتأ) مضارع فتئ ، مثلثة التاء . يستعمل مع النفي ملفوظاً أو منوياً ، لأن موضعه معلوم ، فيحذف للتخفيف كقوله (١) :

فقلتُ بينَ اللهُ أبرحُ قاعداً ولو قطعَ وارأسى لديكِ وأوصالى

أى : لا أبرح . ومعنى (تفتأ) : لا تزال ولا تبرح .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي » أى غمى وحالى ، « وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » أى لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له ، وملتجئاً إليه ، فخلونى وشكايتى . « وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ » أى لمن شكأ إليه من إزالة الشكوى ، ومزبدالرحمة « مَا لَا تَعْلَمُونَ » ما يوجب حسن الظن به ، وهو مع ظن عبده به .

ولما علم من شدة البلاء مع الصبر ، قرب الفرج ، قوتى رجاءهم ، وأمرهم أن يرحلوا المصر ، وبتطلبوا خبر يوسف وأخيه بقوله :

(١) فائله امرؤ القيس من قصيدته التى مطلعها :

الآعِمُّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِيُّ وَهَلْ يَعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الحَالِيُّ؟

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ،

إِنَّهُ لَا يَبِئْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

« يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ » أى تعرفوا من نبيهما ، وتخبروا خبرهما « وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » أى فرجه ورحمته المريحة من الشدة . « إِنَّهُ لَا يَبِئْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ » - لم يُقَلِّ (منه) إشارة إلى ظهور حصوله لمن لم ييأس - « إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » أى بالله ورحمته ، وقدرته على إفاضة الرِّوح ، بمد مضى المدة فى الشدة ، وسنته فى إفاضة اليسر مع العسر ، لا سيمًا فى حق من أحسن الظن به .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَلْنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ

مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ » أى على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر ، ولانفهامه من المقام طوى ذكره إيجازاً « قَالُوا : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ » أى : الملك القادر ، المتمنع ، « مَسَّنَا وَأَهْلَلْنَا الضُّرَّ » أى : الشدة من الجذب ، « وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ » أى : بدرام قليلة فى مقابلة ما نمتاره . استقلوا الثمن واستحقروه اتضاعاً لهيبة الملك ، واستجلاباً لرافته وحنانه . وأصل معنى (الترجية) : الدفع والرعى ، فكنوا به عن القليل الذى يدفع ، رغبة عنه ، لذلك « فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ » أى : أتممه ووفره بهذه الدرهم المزجاة ، كما توفره بالدرهم الجياد . « وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا » أى : برد أحننا ، أو بالإيفاء ، أو بالمساحة وقبول ما لا يمد عوضاً . « إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » أى يثيبهم أحسن الثوبة .

تنبيهات

الأول - في الآية إرشاد إلى أدب جليل ، وهو تقديم الوسائل أمام المآرب ، فإنها أنجح لها . وهكذا فعل هؤلاء : قدموا ما ذكر من رقة الحال ، والتسكن ، وتصغير العوض ، ولم يفجؤوه بمحاجتهم ، ليكون ذريعة إلى إسماع مسامهم ، بيعت الشفقة ، وهز العطف والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا - ومن ثم ، رقت لهم ، وملكتهم الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه ، كما يأتي .

الثاني - يؤخذ من الآية جواز شكوى الحاجة لمن يرجى منه إزالتها .

الثالث - استدلل بمضهم بقوله تعالى : (فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) على أن أجره الكيال على البائع ، لأنه إذا كان عليه توفية الكيل ، فعليه مؤنته ، وما يتم به .

الرابع - استدلل بقوله تعالى : (وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) من قال : إن الصدقة لم تكن محرمة على الأنبياء - كذافي الإكليل - وهذا بعد تسليم نبوة إخوة يوسف . وفيها خلاف . وسيأتي في التنبيهات ، آخر السورة ، تحقيق ذلك .

الخامس - في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) حث على الإحسان ، وإشارة إلى أن الحسين يجزي أحسن جزاء منه تعالى ، وإن لم يجزه المحسن إليه .
ثم بين تعالى رأفة يوسف بتعرفة إليهم بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ)

« قَالَ » أي يوسف مجيباً لهم : « هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ » أي شبان غافلون ؟ استفهام تقرير ، يفيد تعظيم الواقعة . ومعناه : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ! كما يقال للمذنب : هل تدري من عصيت

وهل تعرف من خالفت ؟ وهذه الآية تصديق لقوله تعالى (١) : (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) .

لطائف :

الأولى - أبدى المهاجى مناسبة بديعة فى قول يوسف لهم : (هَلْ عَلِمْتُمْ) إثر قولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) ، وهو أنهم أرادوا بقولهم : (إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) أنه يعطيهم فى الآخرة ما هو خير من العوض الدنيوى ، فأشار لهم يوسف بأنكم تريدون دفع الضرر العاجل ، بوعد الأجر الآجل ، ولا تدفمون عن أنفسكم الضرر الآجل ، كأنكم تفكرونه ، هل علمتم ضرر ما فعلتم بيوسف ؟ .

الثانية - قيل : من تعلقه بهم قوله : (إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) ، كالاتذار عنهم ، لأن فعل القبيح على جهل بمقدار قبحه ، أسهل من فعله على علم . وهم لو ضربوا فى طرق الاعتذار لم يُلقوا عذراً كهذا . ألا ترى أن موسى عليه السلام ، لما اعتذر عن نفسه لم يزد على أن قال (٢) : (فَعَلَّمْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) . ففيه تخفيف للأمر عليهم .

الثالثة - قال الزمخشري : فإن قلت : ما فعلهم بأخيه ؟ قلت : تعريضهم إياه للغم والشكل ، بإفراده عن أخيه لأبيه وأمه ، وجفاؤهم به ، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الدليل للعزير ، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« قَالُوا » أى : استغراباً وتمجباً من أن هذا لا يعلمه إلا يوسف : « أَأَتَيْنَكَ لَأَنْتَ

(١) [١٢ / يوسف / ١٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٢٠] .

يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ « أى : الذى فعلتم به ما فعلتم ، « وَهَذَا أَخِي » أى من أبوى . قال أبو السمود : زادهم ذلك مبالغة فى تعريف نفسه ، وتفخياً لشأن أخيه ، وتكملة لما أفاده قوله : (هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ) حسبما يفيدته قوله : « قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا » فكأنه قال : هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والإذلال ، فأنا يوسف ، وهذا أخى ، قد منّ الله علينا بالخلاص مما ابتلينا به ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ، والأنس بقدر الوحشة .

ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليل بقوله : « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ » أى ربه فى جميع أحواله ، « وَيَصْبِرْ » أى : على الضراء ، وعن المصاى ، « فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى أجرهم . وفى وضع الظاهر موضع الضمير ، تنبيه على أن المنعوتين بالتقوى والصبر ، موصوفون بالإحسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ)

« قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا » أى فضلك بما ذكرت من التقوى والصبر ، وسيرة المحسنين ، « وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ » أى : وإن شأننا وحالنا أننا كنا متعمدين الذنب ، لم نق ولم نصبر ، ففعلنا بك ما فعلنا ، ولذلك أوترت علينا . وفيه إشعار بالتوبة والاستغفار ، ولذلك :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

« قَالَ لَا تَثْرِبَ » أى : لا تعير ولا توبيخ ولا تفرح ، « عَلَيْكُمْ أَيُّومَ » أى : وإن كنتم ملومين قبل ظهور منتهى فعلكم ، ولا إثم عليكم ، إذ « يَغْفِرُ لَكُمْ » .

أى حق لرضاي عنكم ، وحقه أيضاً لواسع رحمته كما قال : « وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ »
 أى : فكأنه لا خطأ منكم . و (اليوم) متعلق بالتثريب ، أو بالمقدر في (عليكم) من
 معنى الاستمرار ، والمعنى : ولا أترّ بكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم
 بغيره من الأيام ؟ ! فتمبيره بـ (اليوم) ليس لوقوع التثريب في غيره ، لأن من لم يثرب أول
 لقاءه واشتعال ناره ، فبعده بطريق الأولى .

وقال الشريف المرتضى في (الدرر) : إن اليوم موضوع موضع الزمان كله كقوله :

اليومَ يَرْحَمُنَا مَنْ كَانَ يَمِيطُنَا واليومَ نَتَّبَعُ مَنْ كَانُوا لَنَا تَبِعًا

ثم زادهم تذكيراً بأن دعا لهم بالمغفرة ، لما فرط منهم بقوله : (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ) .

وقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) تحقيق لحصول المغفرة ، لأنه عفا عنهم ، فالله أولى
 بالعمو والرحمة لهم ، وبيان للوثوق بإجابة الدعاء . وجوز تعلق (اليوم) بـ (يغفر) . والجملة
 خبرية سميت بإشارة بما جل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم .
 والوجه الأول أظهر . والثاني من الإغراب في التوجيهات .

تنبيه :

قال بعضهم : إن تجاوز يوسف عن ذنب إخوته ، وإبقاء عليهم ، ومصافاته لهم ، تملنا
 أن نغفر لمن يسيء إلينا ، ونحسن إليه ، ونصفي له الود ، وأن نغضى عن كل إهانة تلحق بنا ،
 فيسبح الله تعالى إذ ذاك علينا نعمه وخيراته في هذه الدنيا ، كما أوسع على يوسف وبورثنا
 السعادة الأخروية . وأما إذا أضمرنا السوء للمسيئين إلينا ، ونقمنا منهم ، فينتقم الله منا ،
 ويوردنا مورد الثبور ، فنعموذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا .

ثم قال لهم يوسف :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)

« اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ »
 اراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ، وتصديقه بإرسال حلته من حلته التي كان يستشعر بها أو يتدثر ، ليمكون في مقابلة القميص الأول ، جالب الحزن ، وغشاوة العين . و (الإلقاء على وجهه) بمعنى المبالغة في تقريبه منه ، لما ناله من ضعف بصره ، فتراجع إليه قوة بصره ، بانتعاش قلبه ، بشمه واطمئنانه على سلامته . وللمفرحات تأثير عظيم في صحة الجسم ، وتقوية الأعضاء ، وقد جود الكلام في ذلك الحكيم داود الأنطاكي في (تذاكرته) في مادة مفرح بما لا يستغنى عن مراجعته .

وفي (السكنوز) من كتب الطب : الفرح ، إن كان بلطف ، فإنه ينفع الجسم ، ويبسط النفس ، ويريح العقل ، فتقوى الأعضاء وتنتعش . انتهى .

ثم رأيت الرازي عوّل على نحو ما ذكرناه ، وعبارته : قال المفسرون : لما عرفهم يوسف سألمهم عن أبيه ، فقالوا : ذهبت عيناه ، فأعطاهم قميصه . قال المحققون : إنما عرف أن إلقاء القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ، ولولا الوحي ، لما عرف ذلك ، لأن العقل لا يدل عليه . ويمكن أن يقال : لعل يوسف عليه السلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنه من كثرة البكاء ، وضيق القلب ، ضعف بصره ، فإذا ألقى عليه قميصه ، فلا بد أن ينشرح صدره ، وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد . وذلك يقوى الروح ، ويزيل الضعف عن القوى ، فحينئذ يقوى بصره ، ويزول عنه ذلك النقصان . فهذا القدر مما يمكن معرفته بالقاب . فإن القوانين الطبيعية تدل على صحة هذا المعنى . انتهى .

واعلم الرازيّ عنى بالمحققين الصوفية ، أو من يقف على الظاهر وقوفاً بحتاً ولا يخفى أن أسلوب التزليل فى كنياته ومجازاته أسلوب فريد ، ينبغى التفطن له .
وقد جوز فى قوله : (يَأْتِ بِصِيرًا) أن يكون معناه بصير بصيراً ، أو يجىء إلى بصيراً ، على حقيقة الإتيان . فـ (بصيراً) حال . قيل : ينصره قوله : (وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) أى : بأبى وغيره . وفيه نظر ، لأن اتحاد الفعلين هنا فى المبنى ، لا يدل على اتحادها فى المعنى . ولا يقال : الأصل الحقيقة ، لأن ذلك فيما يقتضيه السياق ، ولا اقتضاء هنا . فالأول أرق وأبدع ، لما فيه من التجانس .

روى أن يوسف عليه السلام ، بعد أن دعاهم بالمغفرة قال لهم : إن الله بهثنى أمامكم لأحبيكم وقد مضت سنتا جوع فى الأرض ، وبقى خمس سنين ، ليس فيها حرث ولا حصاد . فأرسلنى الله أمامكم ليجمع لكم بقية فى الأرض ، ويستبقيكم لنجاة عظيمة . وقد جعلنى سبحانه أباً لفرعون ، وسيداً لجميع أهله ، ومتسلطاً على جميع أرض مصر ، فبادروا وأشخصوا إلى أبى وأخبروه بجميع مجدى بمصر ، وما رأيتموه ، وقولوا له : كذا قال ابنك يوسف : قد جعلنى الله سيداً لجميع المصريين ، فهلّم إلى ، فقم فى أرض جاسان ، وتكون قريباً منى أنت وبنوك ، وبنو بنيك ، ومواشيك ، وجميع ما هو لك ، وأعولك ، ها هنا ، فقد بقى خمس سنين مجدبة ، فأخشى أن يهلك الأهل والمال . وكان نما الخبر إلى بيت فرعون . وقيل : جاء إخوة يوسف ، فسرّ بذلك فرعون وخاصته وأمره أيضاً بأن يؤكّد عليهم إتيانهم بأبيهم وأهلهم ، ووعدهم خير أرض فى مصر تكون لهم ، لئلا بأسفوا على ما خلفوا . ثم زود يوسف إخوته أحسن زاد ، وأعطاهم من الحلل والثياب والدراهم مقداراً وافراً ، وبعث إلى أبيه بمثل ذلك ، وأصحابهم عجلات لأطفالهم ونساءهم ، وأوصاهم ألا يتخاصموا فى الطريق - والله أعلم - .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) « وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ » أى خرجت من مصر . يقال : فصل القوم عن المكان وانفصلوا ، بمعنى فارقوه . « قَالَ أَبُوهُمْ » أى : لحفدته ومن حوله من قومه ، من عظم اشتياقه ليوسف ، وانتظاره لروح الله : « إِنَّ لِي لَأَجْدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » الريح : الرائحة ، توجد في النسيم . أى : لأنفسهم رأحتهم مقبلة إلى . كناية عن تحققه وجوده بما ألقى الله في روعه من حياته ، وساق إليه من نسائم البشارة الغيبية بسلامته . وقد كان عظم رجائه بذلك من مولاه ، ووثق ببيل مأموله ومبتغاه ، ولذلك نهى نبيه عن الاستيئاس من روح الله . وإذا دنا أجل الضراء ، أخذت تهب نسائم الفرج حاملة عرف السراء ، يدري ذلك كل من قوى إحساسه ، وعظمت فطنته ، واستنارت بصيرته ، فيكاد أن يلمس في نهاية الشدة زهر الفرج ، ولا يحنت إن آلى أنه يجد من نسيمه أركى الفرج . عرف ذلك من عرف ، فأحرى بمن نالوا من النبوة ذروة الشرف .

وإضافة الريح إلى الولد معروفة في كلامهم : وفي حديث عند الطبراني : ربح الولد من

ريح الجنة : وقال الشاعر :

يا حبذا ربحُ الولدِ ربحُ الخزامى في البلدِ

وقوله : (لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) بمعنى إلا أنكم تفندون . أولولاه لصدقتمونى . (وفنده)

نسبه إلى الفند بفتححتين ، وهو ضعف الرأى والعقل من الهرم وكبر السن .

قال في (العناية) : مأخوذ من الفند ، وهو الحجر والصخرة ، كأنه جعل حجراً لقله

فهمه ، كما قال :

إذا أنت لم تعشق ولم تدرِ ما الهوى فكن حجراً من يابس الصخرِ جلمداً

ثم اتسع فيه فقيل : فنده ، إذا ضعف رأيه ، ولامه على ما فعله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (قَالُوا تَاللّٰهِ اِنَّكَ اِنِّىْ ضَلّٰلِكَ الْقَدِيْمِ)

« قَالُوا » أى حفته ومن عنده : « تَاللّٰهِ اِنَّكَ اِنِّىْ ضَلّٰلِكَ الْقَدِيْمِ » أى لى ذهابك عن الصواب المتقدم ، فى إفراطك فى محبة يوسف ، ولهجتك بذكرك ، ورجائك للقائه ، وكان عندهم أنه مات أو تشتت ، فاستحال الاجتماع به . وجعله فيه لتمكنه ودوامه عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (فَلَمَّا اَنَّ جَاءَ الْبَشِيْرُ اَلْقَاهُ عَلٰى وَّجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيْرًا ، قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ اِنِّىْ اَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُوْنَ)

« فَلَمَّا اَنَّ جَاءَ الْبَشِيْرُ » أى الخبر بما يسره من أمر يوسف « اَلْقَاهُ عَلٰى وَّجْهِهِ » أى : طرح البشير القميص على وجه يعقوب ، أو القاه يعقوب نفسه على وجهه ، « فَارْتَدَّ بَصِيْرًا » أى عاد بصيرا لما حدث فيه من السرور والانتماش . « قَالَ : اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ اِنِّىْ اَعْلَمُ مِمَّا لَا تَعْلَمُوْنَ » أى : من حياة يوسف ، وإنزال الفرج وجوز كون (اِنِّىْ اَعْلَمُ) كلاما مبتدأ . والمقول (لَا تِيْأَسُوْا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ) إن كان الخطاب لبنيه . أو (اِنِّىْ لَا جِدُ رِيْحَ يُوْسُفَ) إن كان لحفته ومن عنده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (قَالُوْا يَا اَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا اِنَّا كُنَّا خٰطِيْنِ)

« قَالُوْا يَا اَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا اِنَّا كُنَّا خٰطِيْنِ » الضمير لبنيه . طلبوا أن يستغفر لهم لما فرط منهم ، أو لحفته ومن عنده لقولهم : (اِنَّكَ لَفِيْ ضَلّٰلِكَ الْقَدِيْمِ) . والأول أقرب وأصوب .

ولما كان من حق المعترف بذنبه أن يُصفح عنه ، ويسأل له المغفرة ، وعدمه بذلك :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

« قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » أى : سوف أدعوه لكم ، فإنه المتجاوز عن السيئات ، الرحيم لمن تاب .

قال المهايى : صرّحوا بالذنوب دون الله ، لزيد اهتمامهم بها ، وكأهم غلب عليهم النظر إلى قهره . وصرّح يعقوب بذكر الرب دون الذنوب ، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التى ربّى بها الكل . انتهى .

وهذا من دقائق لطائف التزويل ومحاسنها فيه .

تنبيه :

قيل : فى هذه الآيات دلالة على جواز التبشير ببشائر الدنيا واستحبابه ، وجواز السرور بحصول النعم الحاصلة فى الدنيا . وفيها دلالة على إرجاء الاستغفار والدعاء لوقت يرى أنه أحضر فيه قلباً من غيره أو أنه أفضل وأقرب للإجابة .

وقد روى أنه آخر الاستغفار إلى السحر . وتخصيص الأوقات الفاضلة بالاستغفار والدعاء معروف فى السنة ، ومنه شرع الاستغفار فى السحر ، وعقب الصلوات ، وقضاء الحج . وكان الدعاء فى السجود ، وعند الأذان ، وبينه وبين الإقامة ، والإفطار من الصيام ، أقرب للإجابة مما عداه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ

اللَّهُ آمِنِينَ)

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ » إشارة إلى ورود يعقوب وآله على يوسف .

وذلك أنهم تخلّوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان ، وأركبوا أطفالهم ونساءهم على العَجَل التي بعث بها فرعون ، وصحبوا ماشيتهم وسرحهم ، وهبطوا أرض مصر - وروى أنهم كانوا سميعين نفساً - وتقدمهم يهوذا إلى يوسف ليدله على أرض (جاسان) فينزلوها . ثم خرج يوسف في مركبته ، فقلقى أباه في (جاسان) ، ولما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً . والمراد بدخولهم على يوسف ووصولهم للقاء خارج البلد ، وبإبواء أبويه ضمهما إليه ، واعتناقهما واصطحابه لهما في مركبه . قالوا : عنى بأبويه والده وخالته ، لأن أمه راحيل توفيت وهي نكساء بأخيه بنيامين . وتنزيل الخالة منزلة الأم ، لكونها مثلها في زوجة الأب ، وقيامها مقامها وتوقيرها ، كتنزيل العم منزلة الأب في قوله ^(١) (وَإِلَهُ آيَاتِكَ إِتْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) .

« وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ » أى من القحط وأصناف المكار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (وَرَفَعَ أَبُوبَيْتٍ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

« وَرَفَعَ أَبُوبَيْتٍ عَلَى الْعَرْشِ » أى جلسهما معه على سرير ملكه تكريماً لهما « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا » أى سجد له أبوه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر ، تحية وتكرمة له . وكان السجود عندهم للكبير يجرى مجرى التحية عندنا .

« وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا » أى السجود « تَأْوِيلُ » أى تعبير « رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » أى

(١) [٢ / البقرة / ١٣٣] .

التي رأيتها أيام الصبا ، وهي سجد أحد عشر كوكباً والشمس والقمر « قَدْ جَمَلَهَا رَبِّي حَقًّا » أى صدقاً مطابقاً للواقع في الحس ، « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ » أى نجاني من العبودية ، وجعل الملك مطيماً لي مفوضاً إلى خزائن الأرض . وفي الاقتصار على التحدث بالخروج من السجن على جلالة ملكه ، ونخامة شأنه من التواضع ، وتذكر ما سلف من الضراء ، استدامة للشكر ، ما فيه من أدب النفس الباهر . وفيه إشارة إلى النعمة في الانطلاق من الحبس ، لأنه كما قال عبد الملك بن عبد العزيز ، لما كان في حبس الرشيد :

ومحلة شمل المسكاره أهلها وتقلدوا مشنوءة الأسماء
دارُ بهابُ بها اللثامُ وتقمي وتقل فيها هيبه الكرماء
ويقول عليج ما أراد ، ولا ترى حراً يقول برقة وحياء
وبرق عن مس الملاحه وجهه فيصونه بالصمت والإغضاء

وقال شاعر من المسجونين :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيَا وَنَحْنُ مِنْ أَهْلِهَا فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إِذَا جَاءَنَا السِّجَانُ يَوْمًا لِلْحَاجَةِ عَجِبْنَا وَقُلْنَا: جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا

ويؤثر عن يوسف عليه السلام أنه كتب على باب السجن : هذه منازل البلاء ، وتجربة الأصدقاء ، وشماتة الأعداء ، وقبور الأحياء .

هذا وقد حاول كثير من الأدباء مدح السجن بسحر بيانهم . فقال علي بن الجهم :

قالوا : حَبِسْتَ فقلتُ ليس بضارِي حبسى . وأى مهند لا يُعمدُ ؟
أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غَابَهُ كِزًّا وَأَوْبَاشُ السَّبَاعِ تَرَدُّدُ
وَالبَدْرُ يَدْرِ كُهُ الْحَاقُ فَتَنَجَلِي أَيَّامُهُ وَكَأَنَّهُ مُتَجَدِّدُ
وَلِسْكَلِ حَالٍ مُعْقِبُ وَكَرْبَمَا أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهَ عَمَّا تَحْمَدُ
وَالسِّجْنُ ، مَا لَمْ تَعْمَشْهُ لِذَنبِي شَنْعَاءُ ، نَمِ الْمَنْزِلُ الْمُتَوَرِّدُ
بَيْتٌ يُجَدِّدُ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةَ فَيَزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُحْفَدُ

وأحسن ما قيل في تسليمة المسجونين قول البحرى :

أما في رسول الله يوسف أسوةً لملك محبوساً على الجور والإفك
أفام جميل الصبر في السجن برهةً فقال به الصبر الجميل إلى الملك

- نقله الثعالبي في (اللطائف واليوافيت) - .

« وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ » أى البادية، وقد كانوا أصحاب مواش، « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ »
أى أفسد « الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أى بالحسد. وأسفده إلى الشيطان لأنه بوسوسته
وإلقائه . وفيه تفادٍ عن تربيهم أيضاً . وإنما ذكره لأن النعمة بemd البلاء أحسن موقفاً .
« إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » أى لطيف التدبير له ، والرفق به ، « إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ »
بوجوه المصالح ، « الْحَكِيمُ » فى أفعاله وأفضيته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ)

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ » أى بعضاً منه عظيماً ، وهو ملك مصر ، « وَعَلَّمْتَنِي
مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » أى تعبیر الرؤيا ، « فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى مبدعهما
وخالقهما ، « أَنْتَ وَلِيِّى » أى مالك أمورى ، فى الدنيا والآخرة تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي
بِالصَّالِحِينَ » أى من النبیین والمرسلين . دعا يوسف عليه السلام بهذا الدعاء لما تمت نعمة
الله عليه بإجماعه بأبويه وإخوته ، وما آثره به من العلم والملك ، فسأل ربه عز وجل ، كما تم
عليه نعمته فى الدنيا ، أن يحفظها عليه باقى عمره ، حتى إذا حان أجله قبضه على الإسلام ،
والحقه بالصالحين . فلبس فيه تمنّ للموت ، وطلب التوفى بمنجزا كما قيل .

روى الإمام أحمد والشيخان ^(١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إن كان محسناً فيزداد ، وإن كان مسيئاً فلعله يستمتع به . ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وفي رواية : وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي .

تنبيهان

الأول - في فقه هذه الآيات : قال بمض اليمانيين : يستدل مما روى أن يوسف خرج للقاء أبيه ، على حسن التعميم باللقاء ، وكذا يأتي مثله في التشيع ، ومنه ما روى في تشيع الضيف . ويستدل مما روى أن المراد بأمه خالته - كما مر - أن من نسب رجلاً إلى خالته فقال : يا ابن فلانة ! لم يكن قاذفاً لها ويستدل من رفعها على العرش - وهو السرير الرفيع - جواز اتخاذها ، ورفع الغير ، تعظيماً للمرفوع . ويستدل من قوله : (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) على أن الانتقال منه نعمة ، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء ، والبعد عن موارد العلوم ، وعن رفاهة المدنية ، ولطف الماشرة ، والكمالات الإنسانية . وروى لجرير ^(٢) :

أَرْضِ الْحِرَاءَةِ لَوْ أَنَّهَا جَرَوْلٌ أَعْنِي الْحَطِيئَةَ لِأَعْتَدِي حَرًّا نَا
مَا جِئْتَهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتَهَا إِلا حَسَبْتُ بِيوتَهَا أَجْدَانَا

(١) أخرجه البخاري في : ٨٠ - كتاب الدعوات ، ٣٠ - باب الدعاء بالموت والحياة ،

حديث ٢٢٤٥ .

ومسلم في ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ١٠ (طبعنا) .
والإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٠١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي) .

(٢) البيهقي لأبي تمام ونصهما كما في الديوان :

لم آتِهَا مِنْ أَى وَجْهِ جِئْتَهَا إِلا حَسَبْتُ بِيوتَهَا أَجْدَانَا
بَلَدِ الْفَلَاحَةِ لَوْ أَنَّهَا جَرَوْلٌ أَعْنِي الْحَطِيئَةَ لِأَعْتَدِي حَرًّا نَا

والقصيدة قالها يمدح مالك بن طوق يستبطنه . ومطامها :

قِفْ بِالطُّولِ الدَّارِسَاتِ عُلَانَا أَمْسَتْ حَبَالُ قَطِينِهِنَّ رِثَانَا

انظر الصفحة ٣١٤ من الجزء الأول (طبعة المعارف) .

وفي الحديث^(١) : (من بدا جفا) أى : من حل البادية . وفي آخر^(٢) : (إن الجفا والقسوة في الفدادين) . ففي هذا دليل على حسن النقلة من البوادي إلى المدن . اهـ زيادة .
 الثانى - قص كثير نبأ استقرار يعقوب وآله بمصر . ومجمله أن يوسف اختار لمستقرهم أرض جاسان . فلما دخلوا مصر أخبر يوسف فرعون بقدم أبيه وإخوته وجميع ما لهم إلى أرض جاسان ، ثم أدخل أباه على فرعون ، فأكرمه وكله حصه ، وسأله عن عمره فأجابه : مائة وثلاثون سنة ، وأقطعه وبنيه أجود أرض في مصر ، وهى أرض رعسيس ، أى عين شمس ، وملسكها إياهم ، ودعا له يعقوب ثم انصرف . ثم أخذ يوسف خمسة من إخوته ، فثلمهم بين يدى فرعون ، فقال لهم : ما حرفتكم فأجابوه - كما أوصاهم يوسف - : نحن وآبائنا رعاة غنم ! فقال فرعون ليوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوى حذق ، فأقمهم وكلاء على ماشيتى . وأجرى يوسف لأبيه وإخوته وسائر أهله طعاماً على حسبهم . وأقاموا في أرض مصر بجاسان ، فتملكوا فيها ، ونموا وكثروا جداً . وعاش يعقوب في أرض مصر سبع عشرة سنة ، فكانت مدة عمره كله مائة وسبعاً وأربعين سنة . ولما دنا أجله قال ليوسف : لا تدفنى بمصر إذا مت ، بل اجملنى منها إلى مدفن آبائى ، فأجابه لذلك . ثم بعد مدة أخبر يوسف بمرض أبيه ، فأخذ ولديه وسار إلى أبيه ، فانتمش أبوه بمقدمه ، ورأى ولديه ، فقال : من هذان ؟ فقال : ابناى رزقتهما الله هاهنا . فقال : أدنهما منى ، فأدناهما ، فقبلهم ، ودعاهما . وقال له : لم أكن أظن أنى أرى وجهك ، والآن أراى الله نسلك أيضاً . ثم أعلم يوسف بدنو أجله ، وبشره بأن الله سيكون معكم ، ويردكم إلى أرض آبائكم . ثم دعا بقمية بنيه ، ودعا لهم بالبركة ، وأوصاهم بأن يضموه إلى قومه ، ويدفنوه مع آبائهم في المغارة التى في حبرون ، وهى المعروفة اليوم بمدينة الخليل فإن فيها دفن إبراهيم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٣٧١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٢) أخرجه البخارى فى : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ١٥ - باب خير مال المسلم غنم يتبع بها

شمف الجبال ، حديث ١٥٦٢ عن ابن مسعود ، من حديث نصه : ألا إن القسوة وغلظ القلوب . الخ

وأخرجه مسلم فى : ١ - كتاب الإيمان ، حديث رقم ٨١ (طبعتنا) .

وسارة امرأته ، وإسحاق ورفقة زوجته ، وليأية امرأة يعقوب . ولما فرغ يعقوب من وصيته لبنيه فاضت روحه ، فوقع يوسف على وجه أبيه ، وبكى وقبله . ثم أمر الأطباء أن يحنطوه ويصبروه . ولما انقضت أيام التعمية به ، استأذن يوسف فرعون بأن يبرح لدفن أبيه ، عملاً بوصيته فأذن له وسار من مصر ، وصحبه إخوته آل أبيه وحاشيته ، ووجهاء مصر ، وأتباع فرعون في موكب عظيم ، إلى أن وصلوا أرض كنعان ودفنوه في المغارة - كما أوصى - ثم عاد بمن معه إلى مصر ، ولم يزل يوسف يرعى إخوته بالإكرام والإحسان ، إلى أن قرب أجله ، فأوصاهم بأن ينقلوه معهم إذا عادوا إلى الأرض التي كتبتها الله لأبائهم . ثم توفي يوسف ، وهو ابن مائة وعشر سنين ، فحنطوه ، وجعلوه في تابوت بمصر .

هذا ما قصه قداماء المؤرخين ، والله أعلم بالحقائق . وإعالم يذكر هذا ، القرآن الكريم ، لأن القرآن لم يبين على قانون التاريخ ، فليس فيه شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هي الآيات والعبر ، تجلت في سياق الوقائع ، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفصيلها ، وإنما يذكر موضع العبارة فيها ، كما سيأتي الإشارة إليه في قوله تعالى (١) : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) ، وقوله (٢) : (وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) . ومضى في المقدمة بسط هذا البحث ، فراجعه . وسنذكر إن شاء الله في آخر السورة شيئاً . من الحكم والعبر المقتبسة من نبأ يوسف ، فانتظر .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَتَوْا بِمُرْسَلٍ)

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ » إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف ، البعيد درجة

(١) [١٢ / يوسف / ١١١] . (٢) [١١ / هود / ١٢٠] .

كأله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتى صار معجزاً . والخطاب لرسول الله ﷺ
 أى : هذا من أخبار الغيوب السابقة ، نوحيه إليك ، ونعلمك به ، لما فيه من العبرة والآتماظ .
 وقوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » كالدليل
 على كونه نبأً غيبياً ووحياً سماوياً . أى : لم تعرف هذا النبأ إلا من جهة الوحي ، لأنك لم
 تحضر إخوة يوسف ، حين أجمعوا أمرهم على إلقاء أخيه في البئر ، وهم يَمْكُرُونَ به ، إذخوته
 على الخروج معهم ، يبنون له النوائل ، وبأبيهم في استئذانه ليرسله معهم أى فلم تشاهدهم
 حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها .

قال أبو السعود : وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد إجماعهم
 ومكرهم فقط ، بل سائر المشاهد أيضاً . وإنما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة ، وأخفى
 أحوالها كما ينبي عنه قوله تعالى (وَهُمْ يَمْكُرُونَ) . والخطاب - وإن كان لرسول الله ﷺ -
 لكن المراد إلام المسكدين . والمعنى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، إذ لا سبيل إلى
 معرفتك إياه سوى ذلك ، إذ عدم سماعك ذلك من الغير ، وعدم مطالعتك للكتب ، أمر
 لا يشك فيه الكذوبون أيضاً . ولم تكن بين ظهرانهم عند وقوع الأمر حتى تعرفه كما
 هو ، فتبلغه إليهم . وفيه تهكم بالسكفار ، فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم . وفيه
 أيضاً إيذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع ، وما ينقله أهل الكتاب ليس على
 ما هو عليه . معنى : أن مثل هذا التحقيق بلا وحي لا يتصور إلا بالحضور والمشاهدة ، وإذ
 ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي . ومثله قوله تعالى ^(١) : (وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ
 أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ) . وقوله ^(٢) : (وَمَا كُنْتَ بِيَجَانِبِ النَّبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى
 مُوسَى الْأَمْرَ) انتهى .

وقوله تعالى :

(١) [٣ / آل عمران / ٤٤] . (٢) [٢٨ / القصص / ٤٤] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ » يريد به العموم ، أو أهل مكة . « وَلَوْ حَرَصْتَ » أى جهدت كل الجهد على إيمانهم ، وبالغت في إظهار الآيات الفاطمة الدالة على صدقك ، « بِمُؤْمِنِينَ » أى بالكتب والرسل ، ليلهم إلى الكفر ، وسبيل الشر . معنى : قد وضع بمثل هذا النبأ نبوته صلوات الله عليه ، وقامت الحججة ، ومع ذلك فما آمن أكثر الناس ، كما قال تعالى ^(١) : (إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) .

قال الرازى : ما معناه : وجه اتصال هذه الآية بما قبلها ، أن كفار قريش ، وجماعة من اليهود ، طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام قص نبأ يوسف تمنتاً ، فسكان يُظنُّ أنهم يؤمنون إذا تلى عليهم ، فلما نزلت وأصروا على كفرهم ، قيل له : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ) الخ . وكأنه إشارة إلى ما ذكر في قوله تعالى ^(٢) : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

« وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ » أى على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد ، « مِنْ أَجْرٍ » أى أجرة « إِنْ هُوَ » أى ما هو ، يعنى القرآن ، « إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » أى : عظة لهم ، يتذكرون به ويهتدون وينجون في الدنيا والآخرة . يعنى : أن هذا القرآن يشتمل على العظة البالغة ، والمرشد القويمة ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا ، ولا جملاً . فلو كانوا عقلاء لقبوا ، ولم يتمردوا .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٦٧ و ٨ و ١٠٣ و ١٢١ و ١٣٩ و ١٥٨ و ١٧٤ و ١٩٠] .

(٢) [٢٨ / القصص / ٥٦] .

قال بعض اليمانيين : في الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد ، من تعليم ووعظ ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) «وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» أي : وكم من آية على وحدانية الخالق ، وقدرته الباهرة ، ونعوته الجليلة ، في السموات : من كواكبها وأفلاكها ، وفي الأرض : من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات ، وثمار مختلفات ، وأحياء ، وأموات ، يشاهدونها ، ولا يعتبرون بها .

قال الرازي : معنى أنه لا عجب إذا لم يتأملوا في الدلائل الدالة على نبوتك ، فإن العالم مملوء من دلائل التوحيد ، والقدرة والحكمة ثم إنهم يرون عليها ، ولا يلتفتون إليها . واعلم أن دلائل التوحيد والعلم والقدرة والحكمة والرحمة ، لا بد وأن تكون من أمور محسوسة ، وهي إما الأجرام الفلكية ، وإما الأجرام المنصرية . أما الأجرام الفلكية فهي قسمان : أفلاك ، وكواكب . أما الأفلاك ، فقد يستدل بمقاديرها المقيمة على وجود الصانع . وقد يستدل بكون بعضها فوق البعض أو تحته ، وقد يستدل بأحوال حركاتها ، إما بسبب أن حركاتها مسبوقة بالمدم ، فلا بد من محرك قادر ، وإما بسبب كيفية حركاتها في سرعتها وبطئها ، وإما بسبب اختلاف جهات تلك الحركات وأما الأجرام المنصرية : فتارة يستدل على وجود الصانع بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ، وتارة بتأثيراتها في حصول الأضواء والأظلال ، والظلمات والنور .

وأما الدلائل المأخوذة من الأجرام المنصرية : فإما أن تكون مأخوذة من بسائط ، وهي عجائب البر والبحر ، وإما من المواليذ وهي أقسام :

أحدها - الآتار العلوية ، كالرعد والبرق والسحاب والمطر والثالج والهواء وقوس قزح
وثانيها - المعادن على اختلاف طبائعها وصفاتها وكيفياتها .
ثالثها النبات وخاصة الخشب والورق والتمر ، واختصاص كل واحد منها بطبع خاص
 ووطم خاص ، وخاصة مخصوصة .

رابعها - اختلاف أحول الحيوانات في أشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها .
خامسها - تشرح أبدان الناس ، وتشرح القوى الإنسانية ، وبيان المنفعة الحاصلة
 فيها .
 فهذه مجامع الدلائل .

ومن هذا الباب أيضاً قصص الأولين ، وحكايات الأقدمين ، وأن الملوك إذا استولوا
 على الأرض وخربوا البلاد، وقهروا العباد، ماتوا ولم يبق منهم في الدنيا خبر ولا أثر ، ثم بقي
 الوزر والعقاب .

ولما كان العقل البشري لا يفي بالإحاطة بشرح دلائل العالم الأعلى والأسفل ، ذكر في
 الكتاب العزيز مجملاً . انتهى .
 وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ » أي : الناس ، أو أهل مكة ، « بِاللَّهِ » أي في إقرارهم بوجوده
 وخالقيته « إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » أي : بمبادتهم لغيره ، وباتخاذهم الأبحار والرهبان أرباباً ،
 وبقولهم باتخاذهم تعالى ولداً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

تنبيه :

كقائد الآية على النعني عليهم بالشرك الأكبر ، وهو أن يعبد مع الله غيره . فإنها تشير إلى

ما يتخلل الأفتدة وينغمس به الأكثرون من الشرك الخفي ، الذى لا يشعر صاحبه به غالباً ومنه قول الحسن فى هذه الآية : ذاك المنافق ، يعمل إذا عمل رثاء الناس ، وهو مشرك بعمله .
 يعنى : الشرك فى العبادة . فصاحبه ، وإن اعتقد وحدانيته تعالى - ولكن لا يخلص له فى عبوديته بل يعمل لحظ نفسه ، أو طلب الدنيا ، أو طلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق . فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب .
 وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبي ﷺ ، فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : الشرك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل . فالرياء كله شرك ، وهو محبط للعبادة ، مبطل ثواب العمل ، ويعاقب عليه إذا كان العمل واجباً . فإنه تعالى أمر بعبادته خالصة . قال تعالى^(١) : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) ، فمن لم يخلص لله فى عبادته ، لم يفعل ما أمر به ، بل الذى أتى به شىء غير المأمور ، فلا يقبل منه .
 وروى مسلم^(٢) وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله : أنا أعنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى ، تركته وشركه .

وروى الإمام أحمد^(٣) عن محمود بن لبيد ، رفته إلى النبي ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ! قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء !
 ومن الشرك نوع غير مغفور ، وهو الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بأن يجب مخلوقاً كما يجب الله . فهذا من الشرك الذى لا يفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه^(٤) : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا . . .) الآية - وقال أصحاب هذا الشرك

(١) [٩٨ / البينة / ٥] . (٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٦ (طبعتنا) . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٤٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) . (٤) [٢ / البقرة / ١٦٥] .

لآلِهِمْ ، وقد جمعهم الجحيم^(١) : (تَأْتِيهِمْ أَنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ) ومعلوم أنهم ما سواهم به سبحانه في الخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ،
 والملك والقدرة ، وإنما سواهم به في الحب والتأله ، والخضوع لهم والتذلل . وهذا غاية الجهل
 والظلم . فكيف يسوى من خلق من التراب ، رب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك
 الرقاب ، وكيف يسوى الفقير بالذات ، الضعيف بالذات ، العاجز بالذات ، المحتاج بالذات ،
 الذى ليس له من ذاته إلا العدم ، بالغنى بالذات ، القادر بالذات ، الذى غناه وقدرته وملكه
 ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكهاله المطلق التام ، من لوازم ذاته ؟ فأى ظلم أقيح من هذا
 وأى حكم أشد جوراً منه ؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه ، أفاده الشمس ابن القسيم فى
 (الجواب السكايف)

قال الحافظ ابن كثير : وثمّ شرك خفى لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن حذيفة
 أنه دخل على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه ، ثم قال : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ
 إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) .

وفى الحديث^(٢) : من حلف بغير الله فقد أشرك - رواه الترمذى عن ابن عمر وحسنه .
 وفى الحديث الذى رواه أحمد^(٣) وأبو داود^(٤) وغيرهما عن ابن مسعود قال : قال رسول الله
 ﷺ : إن الرق والتمايم والتولة شرك . ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا عن زينب امرأة
 عبد الله قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فاتمى إلى الباب ، فنحنح وبزق كراهة
 أن يهجم منا على أمر يكرهه ؟ قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح ، وعندى عجوز ترقينى

(١) [٢٦ / الشعراء / ٩٧ و ٩٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ١٨ - كتاب النذور
 والأيمان ، ٩ - باب حدثنا قتيبة ، حدثنا أبو خالد الأحمر . (٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده
 بالصفحة ٣٨١ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٣٦١٥ (طبعة المعارف) .

(٤) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ - كتاب الطب ، ١٧ - باب فى تعليق التمايم ، حديث

من الحجر ، فأدخلتها تحت السرير . قالت : فدخل فجلس إلى جانبي ، فرأى في عنق خيطاً ، فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقى لي فيه ! فأخذه فقطعه ، ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الرقى والتمايم والتولة شرك . قالت : قلت له : لم تقول هذا ، وقد كانت عيني تفرق ، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقها ، فكان إذا رقاها سكنت ؟ ! فقال : إنما ذاك من الشيطان ، كان ينخسها بيده ، فإذا رقاها كفت عنها ، كان يكفيك أن تقول كما قال النبي ﷺ : أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي . لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً .

وروى الإمام أحمد ^(١) عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : من علق تميمية فقط أشرك !

وأخرج أيضاً ^(٢) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك .

وبإذ كريم أن لفظ الآية يتناول كل ما يصدق عليه مسمى الإيمان . مع وجوده سمي الشرك ، فأهل الشرك الأكبر ما يؤمن بأن الله هو الخالق إلا وهو مشرك به ، بما يتخذ من الشفاء ، وما يعبده من الأصنام . وكذا أهل الشرك الأصغر من المسلمين ، كالرباء مثلاً ، ما يؤمن أحدهم بالله إلا وهو مشرك به ، بذلك الشرك الخفي . وعلى هذا ، قال شرك يجامع الإيمان ، فإن الموصوف بهما مما تقدم ، مؤمن فيما آمن به ، ومشرك فيما أشرك به والتسمية في الشريعة لله عز وجل ورسوله ، فلهما أن يوقعا أي اسم شاء على أي مسمى شاء . فكما أن الإيمان في اللغة التصديق ، ثم أوقفه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات ، واجتناب المعاصي ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٥٦ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٢٢٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبي).

والحديث رقم ٧٠٤٥ (طبعة المعارف) .

إذا قُصد بكل ذلك ، من عمل أو تركٍ ، وجهُ الله تعالى ، كذلك الشرك نقل عن شرك شيء مع آخر مطلقاً ، إلى الشرك في عبادته تعالى ، وفي خصائص ربوبيته .

قال ابن القيم :

حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق ، والتشبه للمخلوق به فالشرك مشبهه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية ؛ فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع ، والمطاء والمنع ، وذلك يوجب تعاقب الدعاء ، والخوف والرجاء ، والتوكل به وحده . فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق ، وجعل من لا يملك لنفسه نقماً ولا ضرراً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فضلاً عن غيره ، مشبهاً بمن له الأمر كله ، جل وعلا . فمن أقيح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات ، بالقادر الغني بالذات . ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه ، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه . وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستمانة وغاية الذل ، مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة ، أن يكون له وحده . ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره . فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير ، بمن لا شبه له ، ولا ند له ، وذلك أقيح التشبيه وأبطله ، ولشدة قبحه ، وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده أنه لا يفقره . ثم مع أنه كتب على نفسه الرحمة . ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين ، لا قوام لها بدونهما : غاية الحب ، مع غاية الذل . هذا تمام العبودية . وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين . فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من الحال أن تأتي به شريعة من الشرائع ، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل . ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم ، وأفسدتها عليهم ، ومضى على الفطرة من سبقت له من الله الحسنی . إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود . فمن سجد لغيره فقد شبهه للمخلوق به . ومنها التوكل ، فمن توكل

على غيره فقد شبهه به ، ومنها التوبة ، فمن تاب لغيره فقد شبهه به . ومنها الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً . فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه . وأما في جانب التشبه به ، فمن تعاضد وتكبر ، ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم ، والخضوع ، والرجاء ، وتعليق القلب به ؛ خوفاً ، ورجاءاً ، والتجاء ، واستمئاناً ، فقد تشبه به ، ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيق بأن يهيئنه غاية الهوان ، ويذله غاية الدل .

وفي الصحيح ^(١) عنه ﷺ قال : يقول الله عز وجل : العظمة إزارى ، والكبرياء ردأى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة . وكذلك من تشبه به في الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده ، كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ، ونحوه .

وفي الصحيح ^(٢) عنه صلى الله عليه وسلم . أعيظ رجل على الله رجل يسمى ملك الأملاك ، لا ملك إلا الله .

فهذا غضب الله على من تشبه في الاسم ، الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده يحكم عليهم كلهم ، ويقضى عليهم ، لا غيره .

وتقمة هذا البحث في (الجواب السكافي) لابن القيم ، فانظره .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في : ٤٥ - كتاب البرّ والصلة والآداب ، حديث رقم ١٣٦ (طبعنا).

(٢) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ١١٤ - باب أقبض الأسماء إلى الله ،

حديث رقم ٢٣٦٧ ، عن أبي هريرة .

ومسلم في : ٣٨ - كتاب الآداب ، حديث رقم ٢١٠٢٠ (طبعنا) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« أَفَأَمِنُوا » أى هؤلاء المشركون « أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ » أى : عقوبة تنبسط عليهم وتغمرهم « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً » أى فجأة « وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى : بإتيانها . وهذا كقوله تعالى (١) : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) وقوله (٢) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَدْعُبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٨] (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ، عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي » أى هذه السبيل ، التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، سبيلى ، أى طريق ومسلكى وسنتى . والسبيل والطريق يذكّران ويؤنّثان . ثم فسر سبيله : بقوله : « أَدْعُو إِلَى اللَّهِ » أى : إلى دينه وتوحيده ، ومعرفة بصفات كماله ، ونموت جلاله « عَلَىٰ بَصِيرَةٍ » أى : مع حجة واضحة ، غير عمياء . « أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » أى : آمن بى ، يدعون إلى الله أيضاً على بصيرة ، لا على هوى . « وَسُبْحَانَ اللَّهِ » أى : وأزّهره

(٦) [١٦ / النحل / ٤٥ و ٤٦ و ٤٧] . (٢) [٧ / الأعراف / ٩٧ و ٩٨ و ٩٩] .

وأجله وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نداء أو كفء أو ولد أو صاحبة ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، « وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » أى : على دينهم .

تنبيهات :

الأول - قال السمين (ادْعُوا إِلَى اللَّهِ) يجوز أن يكون مستأنفاً ، وهو الظاهر ، وأن يكون حالاً من الياء . و (على بصيرة) حال من فاعل (ادْعُوا) . أى : ادعوا كأننا على بصيرة . وقوله : (وَمَنْ اتَّبَعَنِي) عطف على فاعل (ادْعُوا) ، ولذلك أكد بالضمير المنفصل . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والخبر محذوف . أى : ومن اتبعني يدعوا أيضاً . ويجوز أن يكون (عَلَى بَصِيرَةٍ) خبراً مقدماً ، و (أَنَا) مبتدأ مؤخرًا ، و (مَنْ اتَّبَعَنِي) عطف عليه ومفعول (ادْعُوا) إما منوى ، أى الناس ، أو منسى .

الثانى - دل قوله تعالى (عَلَى بَصِيرَةٍ) على مزية هذا الدين الحنيف ، ونهجه الذى انقرد به ، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايقه ، ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين ، وكره عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول ، وطالبها بالإيمان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه - انظر (رسالة التوحيد) فى تمة ذلك - .

الثالث - دلت الآية على أن سيرة أتباعه ﷺ ، الدعوة إلى الله .

قال الرازى : كل من ذكر الحجة ، وأجاب عن الشبهة ، فقد دعا بمقدار وسمعه إلى الله . وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط : وهو أن يكون على بصيرة مما يقول ، وعلى هدى ويقين ، فإن لم يكن كذلك ، فهو محض الغرور . انتهى . ولا يخفى أن الدعوة إلى الله إنما هى بنشر مطالب الدين ، وإذاعة آدابه وتعليمه .

قال بعضهم : ينبغى للعالم أن يكون حديثه مع العامة ، فى حال مخالطته ومجالسته لهم ، فى بيان الواجبات والمحرمات ، ونوافل الطاعات ، وذكر الثواب والمعاقب ، على الإحسان

والإساءة . ويكون كلامهم معهم بمباراة قريبة واضحة يعرفونها ويفهمونها . ويزيد بياناً للأمر التي يعلم أنهم ملبسون لها ولا يسكت حتى يسأل عن شيء من العلم ، وهو يعلم أنهم محتاجون إليه ، ومضطرون إليه ، فإن علمه بذلك سؤال منهم بلسان الحال . والعامّة قد غلب عليهم التساهل بأمر الدين ، علماً وعملاً ، فلا ينبغى للعلماء أن يساعدوهم على ذلك بالسكوت عن تعليمهم وإرشادهم ، فيمّ الهلاك ، ويمظم البلاء . ولما تخبر عامياً - وأكثر الناس عامة - إلا وجدته جاهلاً بالواجبات والمحرمات ، وبأمور الدين التي لا يجوز ولا يسوغ الجهل بشيء منها ، وإن لم يوجد جاهلاً بالكل ، وجد جاهلاً بالبعض . وإن علم شيئاً من ذلك ، وجدت علمه به علماً مسموعاً من السنة الناس ، لو أردت أن قلبه له جهلاً فعلت ذلك بأيسر مؤونة ، لعدم الأصل والصحة فيما يعلمه . وعلى الجملة ، فيتأكد على العلماء أن يجالسوا الناس بالعلم ، ويحدثوهم به ، ويثبثوهم ، ويكون كلام العالم معهم في بيان الأمر الذي جاءوا من أجله . مثل ما إذا جاءوا لعقد نكاح ، يكون كلامه معهم فيما يتعلق بحقوق النساء من الصداق والنفقة والمشاركة بالمعروف . أو لعقد بيع ، يكون كلامه في صحيح البيوع وآدابها ، وفوائد التجارة النافعة ، واجتناب الغش والخداع وهكذا . ولا ينبغى للعالم أن يخوض مع الخائضين ، ولا أن يصرف شيئاً من أوقاته في غير إقامة الدين . وبالسكوت عن التذكير والتعليم ، يغلب الفساد ، ويمم الضرر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » أي لا ملائكة

من أهل السماء. رد لقول المشركين^(١): (لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً). وهذا كقوله^(٢) تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَامُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّامَةَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ). وقوله^(٣): (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّامَةَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) وقوله^(٤): (قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ) الآية .

واحتج بقوله تعالى: (إِلَّا رِجَالًا) على أنه لم ينتظم في سلك النبوة امرأة .
والقرى : جمع قرية ، وهي على ما في (القاموس) : المصر الجامع . وفي (كفاية المتحفظ) : القرية كل مكان اتصلت به الأبنية ، واتخذ قراراً ، وتقع على المدن وغيرها . انتهى .

قال ابن كثير : والمراد بالقرى هنا المدن . أى : لأنهم من أهل البوادي الذين هم أجفئ الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المهود المعروف : أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم . وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي . ولهذا قال تعالى^(٥): (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . . .) الآية .

قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى لأنهم أعلم وأحلم من أهل الثُمرور .
وقوله تعالى: « أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى : هؤلاء المكذّبون ، « فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا » أى نظر تفكّر ، « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى : من الأمم المكذّبة . كقوله تعالى^(٦): (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَمْقُلُونَ بِهَا . . .) الآية فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين . وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ، ولهذا قال تعالى: « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » أى : الشرك والفواحش ، وآمنوا بالله ورسوله وكتبه .

(١) [٤١ / فصلت / ١٤] . (٢) [٢٥ / الفرقان / ٢٠] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٨]

(٤) [٤٦ / الأحقاف / ٩] . (٥) [٩ / التوبة / ٩٧] . (٦) [٢٢ / الحج / ٤٦] .

قال ابن كثير : أى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة ، وهى خير لهم من الدنيا . كقوله تعالى (١) : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تستعملون عقولكم ، فعملوا أن الآخرة خير . أو تعلموا كيف عاقبة أولئك .

ثم بين تعالى أن العاقبة لرسله ، وأن نصره يأتهم إذا تمادى تكذيبهم ، تثبيتاً لفؤاده عليه الصلاة والسلام ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَضَعُوا أَيْمَانَهُمْ فَعَدَّ كَذِبًا مَا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِّنَّا فَانجَبُوا بِمَنِّهِمْ فَوَلَّوْا الْخُبْرَاءَ وَلَا يَذْكُرُونَ) (٢)

« حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ » أى : من إجابة قومهم ، « وَوَضَعُوا » أى : علموا وتيقنوا . يعنى : الرسل ، « أَنَّهُمْ قَدَّ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرًا مِّنَّا » يقرأ (كَذَبُوا) بضم الكاف وتشديد الذال . أى : كذبهم قومهم بما جاءوا به ، لطول البلاء عليهم . ويقرأ بضم الكاف وتخفيف الذال . فالضمير فى (وَوَضَعُوا) - على ما اختاروه - للقوم . أى : ظنوا أن الرسل قد كذبوا . أى : ما وعدوا به من النصر .

وروى عن ابن عباس أن الضمير للرسل . أى : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر ، وقال : كانوا بشرًا ، وتلا قوله تعالى (٢) : (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ) وقد استشكلوه على ابن عباس ، وتأولوا الكلامه وجوهاً :

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] . (٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

قال الزمخشريّ: أراد بالظن ما يخطر بالبال، ويهيجس في القلب، من شبه الوسوسة، وحديث النفس، على ما عليه البشرية. انتهى.

وقيل: المراد بظنهم عليهم السلام ذلك، المبالغة في التراخي والإمهال، على طريق الاستمارة التمثيلية، بأن شبه المبالغة في التراخي بظن الكذب، باعتبار استلزام كل منهما، لعدم ترتب المطلوب، فاستعمل ما لأحدهما للآخر.

وقال الخطابيّ: لا شك أن ابن عباس لا يجيز على الرسل أنها تُكذَّبُ بالوحي، ولا تشك في صدق الخبر، فيحمل كلامه على أنه أراد أنهم، لطول البلاء عليهم، وإبطاء النصر، وشدة استنجاز ما وعدوا به - توهوا أن الذي جاءهم من الوحي كان حساباً من أنفسهم، وظنوا عليها الغلط في تلقى ما ورد عليهم من ذلك، فيكون الذي بنى له الفعل أنفسهم، لا الآتى بالوحي. والمراد بـ (الكذب): الغلط، لا حقيقة الكذب، كما يقول القائل: كذبتك نفسك.

قال الحافظ ابن حجر: ويؤيده قراءة مجاهد (وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا) بفتح أوله مع التخفيف أى: غلطوا. ويكون فاعل (وظنوا) الرسل.

وقال أبو نصر القشيريّ: ولا يبعد أن المراد خطر بقلب الرسل، فصرفوه عن أنفسهم. أو المعنى: قربوا من الظن، كما يقال: بلغت المنزل، إذا قربت منه.

وقال الترمذى الحكيم: وجهه: أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر، أن يتخلف النصر، لا من تهمة بوعد الله، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط، فكان الأمر إذا طال، واشتد البلاء عليهم، دخلهم الظن من هذه الجهة.

وحكى الواحدى عن ابن الأنبارى أنه قال: ما روى عن ابن عباس غير معول عليه، وأنه ليس من كلامه، بل تووّل عليه.

قال ابن حجر : وعجب لابن الأنباري في جزمه بأنه لا يصح ثم للزخشي في توقفه عن صحة ذلك عن ابن عباس ، فإنه صح عنه ، أي : فرواه البخاري^(١) في تفسير البقرة بلفظ : ذَهَبَ بِهَا هُنَا ، وَأَشَارَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَزَادَ الْإِسْمَاعِيلُ عَنْهُ : كَالُوا بَشَرًا ضَعُفُوا وَأَيْسُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا .

وروى البخاري^(٢) أن عائشة كانت تقرأ (كذبوا) مشدودة ، وتناولها على المعنى الأول ، وأن عروة قال لها : لعلها (كذبوا) مخففة ، فقالت : معاذ الله !

قال الحافظ ابن حجر : وهذا ظاهر في أنها أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم تبلغها ممن يرجع إليه في ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القراء : عاصم ويحيى بن وثاب والأعمش وحزمة والكسائي . ووافقتهم من الحجازيين أبو جعفر بن القمقاع ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي والحسن البصري ومحمد بن كعب القرظي في آخرين .

وقوله تعالى : « فَفَجَّيْ مَنْ نَسَّاهُ » وهم الرسل والمؤمنون بهم . وقرئ^{*} (فننجي) بالتخفيف والتشديد . وقرئ^{*} (فنجا) .

« وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا » أي عذابنا . « عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » أي : إذا نزل بهم . وفيه بيان من شاء الله نجاتهم ، لأنه يعلم من المقابلة أنهم من ليسوا بمجرمين . وهم من تقدم .

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٩٧٥ ، عن ابن عباس .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢ - سورة البقرة ، ٣٨ - باب أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، حديث رقم ١٥٩٨ ، عن عائشة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١١] (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ
وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » الضمير ليوسف وإخوته ، أو للأنبياء
وأعمهم . ورجح الزمخشري الثاني [بقراءة (قِصصِهِمْ) بكسر القاف ، جمع قصة . والمفتوح
مصدر بمعنى المفعول . وأجيب بأن قصة يوسف وأبيه وإخوته مشتملة على قصص وأخبار
مختلفة ، وقد يطلق الجمع على الواحد ، كما مرّ في (أَضْفَاثُ أَخْلَامٍ) . وسنذكر وجوه العبر
منها بعونه تعالى .

« مَا كَانَ » أي : القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة « حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ » أي :
يختلف . « وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ » أي : من الكتب المنزلة ، فهو يصدق ما فيها
من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتعيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير .
قال بعض المحققين : المراد به أن قصص القرآن ليست مخترعة ولا مفتراة ، بدليل وجود
أمثالها بين الناس ، قبل نزوله . فهي وإن اختلفت قليلاً في بعض التفاصيل والجزئيات ، عما
يرويه الناس ، إلا أنها توافقت في الجملة ، وتصدقها في الجوهر . فلا تظنوا أيها المشركون أن
النبي اخترعها بمقله ، بل أسألوا عنها أهل الكتاب ، تجدوا أنها معروفة بينهم ، ومروية في
كتبهم . فوجود قصص القرآن عند الناس من قبل ، من أعظم ما يصدق به ويؤيده ، لأن النبي
صلوات الله عليه ، لم يطلع على كتب أهل الكتاب . ولا يتوهم من هذه الآية أن قصص
القرآن يجب ألا تختلف عن قصص التوراة والإنجيل في شيء ما ، كلا ! إذ لو صح

هذا لما قال تعالى (١) : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). فقصصه قد تختلف عما عندهم ، وتبين لهم حقه من باطله . فلانفاة بين تصديق القرآن لقصصهم في الجملة ، ومخالفته لها في بعض الجزئيات - كما قلنا - ويجوز أن يكون المراد بقوله : « تصديق الذي بين يديه » تصديق الحق الذي عندهم ، لا كل الذي عندهم ، وإلا لدخل في ذلك عقائدهم الفاسدة ، وأوهامهم وخرافاتهم وغيرها ، مما جاء القرآن لإزالته ومحقه ، وبسبب ذلك أن يكون مصدقاً لما جاء لإبطاله . فتنبه لذلك ، ولا تكن من الغافلين . انتهى .

وقوله تعالى . « وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ » أي . تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والآداب والأخلاق ، ووجوه العبر والمغزات . ولذا كان أعظم ما تنقذ به القلوب من النسي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، وتبغى به الرحمة من رب العباد ، كما قال تعالى : « وَهَدَىٰ » أي : من الضلالة « وَرَحْمَةً » أي : من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أي يصدقون به ، ويممـلون بأوامره ، فإن الإيمان قول وعقد وعمل . وخصهم لأنهم المنفقون به .

خاتمة في مباحث مهمة

الأول - فيما قيل في وجوه العبر في هذا القصص .

قال في (اللباب) : الاعتبار والعبرة : الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد . والمراد منه التأمل والتفكير . ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الحبّ بمد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتخليكه مصر بمد العبودية . وجمع شمله بأبيه وإخوته بمد المدة الطويلة ، واليأس من الاجتماع ، قادر على إغزاز محمد ﷺ ، وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه . وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن النيوب ، فكانت معجزة له ﷺ .

(١) [٢٧ / النمل / ٧٦] .

وقال بمضهم : إن قصة يوسف الصديق ، حجة الفائدة ؛ وجليلة العائدة ، تحدو بكل امرئ أبي إلى الاقتداء بها . فإن من أطلق سَوائِمَ الفكر في حياة يوسف عليه السلام ، رآها رغيدة ، وألفاها هيئمة ، وما ذلك إلا لطيب سيرته ، وحميد سيرته ، وتمسكه بمرى التقوى والفضيلة ، ولاسيما فضيلة العفة والطهارة ، التي ترفع قدر صاحبها ، وتنزله المنزلة السامية . فعلى المرء أن يقتفى أثر هذه الفضيلة الجليلة ، كيوسف ، فيتمسك ذروة المجد في هذه الدنيا ، وينال السعادة الدائمة في الآخرة . انتهى .

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة من جملة ما قص على النبي ، صلوات الله عليه ، من أنباء الرسل ، وأخبار من تقدمه ، مما فيه التثبيت المشار إليه في قوله تعالى (١) : (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ . . .) الآية . وإنما أفردت على حدتها ، ولم تنسق على قصص الرسل ، مع أنهم في سورة واحدة ، لفارقة لمضمونها تلك القصص . ألا ترى أن تلك قصص إرسال من تقدم ذكرهم عليهم السلام ، وكيفية تلقى قومهم لهم ، وإهلاك مكذبيهم ؟ أما هذه القصة ، فخالصها : فرج بعد شدة ، وتعريف بحسن عاقبة الصبر ؛ فإنه تعالى امتحن يعقوب عليه السلام بفقد ابنه وبصره ، وشقات بنيه . وامتحن يوسف عليه السلام بالجَبِّ والبيع وامرأة العزيز وفقد الأب والإخوة والسجن . ثم امتحن جميعهم بشمول الضر ، وفلة ذات اليد (٢) (مَسَّنَا وَأَهْلَلْنَا الضَّرُّ . . .) الآية . ثم تداركهم الله بالفهم ، وجمع شملهم ، وردَّ بصر أبيهم ، واثتلاف قلوبهم ، ورفع ما تزغ به الشيطان . وخلص يوسف عليه السلام ، وبكيد من كاده ، واكتنافه بالعصمة ، وبرأته عند الملك والنسوة . وكل ذلك مما أعقبه جميل الصبر ، وجملة اليقين ، وحسن تلقى الأقدار بالتفويض والتسليم ، على توالي الامتحان ، وطول المدة . ثم أنجرت في أثناء هذه القصة الجليلة إنابة امرأة العزيز ، ورجوعها إلى الحق ، وتمهاتها ليوسف عليه السلام ، بما منحه الله من الزاهرة عن كل ما يشين . ثم استخلاص العزيز إياه . إلى

(١) [١١ / هود / ١٢٠] . (٢) [١٢ / يوسف / ٨٨] .

ما أنجزت في هذه القصة الجليلة من العجائب والعبر . فقد انفردت هذه القصة بنفسها ، ولم تناسب ما ذكر من قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام ، وما جرى في أمهم ، فلهذا فصلت عنهم . وقد أشار في سورة برأسها إلى عاقبة من صبر ورضى وسلم ليتنبه المؤمنون إلى ما في طي ذلك . وقد صرح لهم ما أجملته هذه السورة من الإشارة في قوله (١) تعالى : (وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...) إلى قوله : (أُمَّنًا) وكانت قصة يوسف عليه السلام بجمالها أشبه شيء بحال المؤمنين في مكابدهم في أول الأمر ، وهجرهم ، وتشققهم مع قومهم ، وقلة ذات أيديهم ، إلى أن جمع الله شملهم (٢) : (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمُ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ، وأورثهم الأرض ، وأيدهم ونصرهم . وذلك بجليل إيمانهم ، وعظيم صبرهم ، فهذا ما أوجب تجرد هذه القصة عن تلك القصص - والله أعلم - .

ثم إن حال يعقوب ويوسف عليهما السلام ، في صبرهما ، ورؤية حسن عاقبة الصبر في الدنيا ، ما أعدّ لهما من عظيم الثواب ، أنسب بحال نبينا عليه السلام في مكابدة قريش ، ومفارقة وطنه ، ثم تعقيب ذلك بظفره بمدوّه ، وإعزاز دينه ، وإظهار كلمته ، ورجوعه إلى بلده ، على حالة قرّت بها عيون المؤمنين ، وما فتح الله عليه وعلى أصحابه . فتأمل ذلك ! ويوضحه ختم السورة بقوله : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ . . .) الآية . فحاصل هذا كله الأمر بالصبر ، وحسن عاقبة أولياء الله فيه - كذا في تفسير البرهان للبقاعي ملخصاً - .

وجاء في كتاب (النظام والإسلام) في بحث التربية والآداب في قصص القرآن ما مثاله : طال الأمر على أمتنا ، فأهملت ما في غضون كتابها من أساس التربية والحكمة ، وكيف تنتقي الرجال الأكفاء في مهام الأعمال . يا ليت شمري ! ما الذي أصابها حتى غضت النظر عن القصص التي قصها ، وأهملت أمرها ، وظن أهلها أنها أمور تاريخية لا تميد إلا

(١) [٢٤ / النور / ٥٥] . (٢) [٣ / آل عمران / ١٠٣] .

المؤرخين . القصص في كل أمة ، عليها مدار ارتقاؤها ، سواء كانت وضعية أم حقيقية ، على أسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد . على هذا تبحث الأمم ، قديمها وحديثها . وناهيك بكتاب (كليله ودمنة) ، وما والاها من القصص الناسجة على منواله في الإسلام ، ككتاب (فاكهة الخلفاء) ، و (مقامات الحريري) . جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهي - لا جرم - أعلى منالاً ، وأشرف مزينة . كيف لا وقد جمعت أحسن الأسلوب ، واختيار المقامات المناسبة لما سيقت إليه ، والقدوة الحسنة للكمّل المحاصرين من الأنبياء ومن والاهم ، وتحققها في أنفسهم ، لوقوع مواردنا ، وإن حب التشبه طبيعة مرتكزة في الإنسان ، لا سيما لمن يقتدى بهم . فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ، ونقصت في سواها . أليس من العيب الفاضح أن نقرأ قصص القرآن ، فلانكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ، ومرت كأمس الدابر؟! ومالنا ولها إذن؟! أ تالله إن هذا هو البوار! ولم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها ، وأنها عبرة لمن اعتبر ، وتذكرة لمن تفكر ، وتبصرة لمن ازدجر . أما الرجوع إلى التاريخ ، ومقارنته بما قصه المؤرخون في كتبهم ، وما سطره الأقدمون على مباينتهم ، وما يقوله القاصون في خرافتهم ، فتلك سبيل حائذ عن الجادة ، يضلّ فيه الماهرون . يرشدك لذلك ما تسمعه من نبأ فتية الكهف ، وكيف يقول (١) : (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ . وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَنَأْمِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَمْلِكُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) . فانظر كيف أسند العلم لله ، ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة ، لئلا يكون ذريعة للطعن في التنزيل . فإن قال : خمسة ، قالوا : ستة؛ وإن قال : أربعة ، قالوا سبعة . فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف في القصص ، وما المقصود منها إلا ليكون عبرة . وبالإجمال : فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها ، والعبر المبصرة للسامعين (ائْتَدَّ كَأَنَّ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) .

(١) [١٨ / الكهف / ٢٢] .

ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان ، فلا نعتمد إلا على البرهان . تأمل هذا القصص ، تجده لا يذكر إلا ما يناسب الإرشاد والنصح ، ويعرض عن كثير من الوقائع ، إذ لا لزوم لها ، ولا معمول عليها . فلا ترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق ، وحجج عقلية ، وتبصرة وتدكرة ، ومحاورات جميلة تلذّ العقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ما حكاها عن يوسف الصديق عليه السلام ، وكيف جاوز فيها كل ما لا علاقة له بالأخلاق ، من مدينة المصريين وأحوالهم ، إلى الخلاصة والثمرّة . ألا ترى كيف صدرت بحديث سجود الشمس والقمر والكواكب له في الرؤيا ، دلالة على أن للطفل استعدادا يظهر على ملامحه ، وأقواله وأفعاله ورؤياه؟ وهذا أعظم شيء اعتنى به قدماء الحكماء ، من اليونان والفرس ، كما ذكره المؤرخون وعلماء الأخلاق : كانوا يحتبرون أبناءهم ، ويتأملون ملامحهم ، ليعرفوا ما استعداده له من الصناعات والرئاسات والعلوم . ثم تأمل في قصة الإخوة ، وحديث القميص والجبّ والذئب والدم ، لتعلم ما نشاهده كل يومٍ من معاداة الأقران لمن ظهرت مبادئ الجمال النفسى ، والخلق المرضى ، والجلال الظاهر على ملامحه . فيعييونه بما يشينه في نفسه أو عرضه أو خلقه ، دلالة على أن هذه سنّة في الكون لا تغادر نبياً ، ولا حكماً ، ولا عالماً مهما حسنت أخلاقه ، وجل ظاهره وباطنه . . !

كلّ العداوات قد تُرجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد .

جرت تلك السنّة في الأناسى : فإذا صبر الصالح فاز بالولاية عليهم ، وأحبّوه بعد العداوة ولو بعد حين ، وعادوا من آذاه ! ثم انظر في حديث قصة امرأة العزيز ، وكيف عفّ مع الشباب ، وكيف ساس نفسه وصدق ظن مولاه في الأمانة ؛ وأرضى إلهه ، واتّسم بالفضيلة ، فتوّازى جماله الباطنى والظاهرى . . ! ولنكتف بهذا القدر الآن ، ولنشرع في الكلام على الآداب والأخلاق وتربية الأمراء والفقو والصفيح ، التي تضمّنتها تلك القصة !

فأما علم الأخلاق ، وتربية رؤساء الأمم منها ، فتأمل في كلام الحكماء - أولهم وآخرهم -

تجد إجماعهم على أن سياسة أخلاق النفس أولاً فالمنزل فالمدينة ، كل واحدة مقدمة للاحتما
ثمرة لسابقتها ؛ إذ لا يعقل أن يسوس منزله من لم يسس نفسه ، أو يسوس أمته من لم يدبر
إدارة منزله !

بايع الصحابة - عليهم رضوان الله - الخليفة الأول ، فأخذ قاشاً وذراعاً وذهب إلى
السوق في الغداة ، فاستاء الصحابة ولاموه فقال : إذا أضمت أهلي ، فأنا للمسلمين أضعف !
فرضوا له دريهمات من بيت المال ، فقال : إذن أنظر في شؤونكم ! لذلك ، نجد الغربيين -
إذا ولّوا رجلاً إدارة بلادهم - أكثروا السؤال عن قرينته وإدارة منزله ، علماً منهم أن منزله
أقرب إليه من الأمة .

فانظر هذه الحقائق من سيرة النبي يوسف الصديق كيف ذكرت في الكتب السماوية ،
ورببت في القرآن ترتيباً محكماً ، ذكرت فيها السياسات الثلاث مرتبة هكذا : النفس فالمنزل
فالمدينة ، ترتيباً طبيعياً ، تنبهاً لبني الإسلام على معرفة هذا العلم وانتقائهم الأكفاء للأعمال
العامة . فأشير فيها لتربية الأخلاق الفاضلة بالعفة في عنقوان الشباب مع الصديق . وايت
شمري ! كيف حفظ أخلاق آبائه وقومه والأنبياء في وسط مدينة المصريين وزخرفهم
وجالهم ، وعبد الله وحده ، ونسى ما يراه من أبي الهول وأيس والأرباب المتفرقة .. ؟ !
يذكر هذا تبصرة لمن أحاطت بهم أمواج الحدثان من كلّ جانب ، أن يحافظوا على أصول
دينهم وقواعده ، ثم ليفعلوا ما يشاءون في أمور دنياهم .. !

ظهر صدق يوسف في أخلاقه الشخصية ، فلم يكن ذلك كافياً لإدارة أموره العامة ،
فأودع السجن وأحيط بالأحداث والجهلة من كلّ جانب ، فأخذ يسوسهم كما يسوس الرجل
أهل منزله ، وبث عقيدته بينهم ، ظاهراً بمظهر الكمال والإحسان والعطف عليهم (١) :
(قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ...) الآية . وأخذ يقص عليهم سيرة أسلافه ، وحبّه

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] .

لذهبهم ، وبفضه لأصنام المصريين ، ونحوهم ، فقال^(١) : (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . .) الآية . ثم أخذ يذكّرهم أنّ تفرّق وجهه الأمة ضلال في السياسة ، وأنّ توحيد وجهتها كياسة فيها ، فقال^(٢) : (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَبْتَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) فتفريق الوجهة شتات الجامعة . لم تُسدّ أمة في الوجود إلا برجالٍ يوحدون وجهتها أيّاً كانت فيؤمّون مقصداً واحداً والتفصيل لا يخفى على أولى الألباب . . .

وفي (آراء أهل المدينة الفاضلة) للغاربي اثنتا عشرة جامعة بكلّ منهن قوم اتحدت بها : كاللغة ، والوطن ، والدين ، والأخلاق ، والجنس ، والحكيم المرشد ، والأب الأكبر . ونحو ذلك مما امتازت به أمة أو جماعة .

ولما تمّ له ، عليه السلام ، الأمران - سياسة النفس والعشيرة - أخرج من السجن معظماً مبعجلاً وترقى من تعليم الصمّوك في السجن إلى تعليم الملوك على العروش ، وأخذ يربهم كيف يقتصدون الأموال ، وعبّر لهم السنبلات الخضرة واليابسات والبقرات السماء والمجاف ، وأرشدهم إلى خزن البروسنابله لثلا يفسد ، وغير ذلك من الأمور العامة . وهذه هي المرتبة الثالثة سياسة الأمة بأجمعها بعد قطع تينك العقبتين .

والبراعة والكمياسة في علوم العمران ، وتدبير أمر الأمة ، إمّا بوحى وهذا خاصٌّ به وبأمثاله من الأنبياء عليهم السلام ، وإمّا بتعليم وتدريب وهو اللائق بسائر الناس .

ترشد هذه السيرة الشريفة إلى أن الأخلاق الفاضلة ما تثبت عليها النفس مع الحفّير والعظيم والصغير والكبير ، وأنّ الإنسان لا يستحقّر تعليم الأصاغر ، فإنه لا بدّ يوماً ما أن يصل إلى الأكابر ، كما في حديث^(٣) هرقل مع أبي سفيان ، وتعليم الصديق من في السجن . فبلغ صاحب السجن فرعون المصريين .

(١) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٩] .

(٣) أخرجه البخاري في : ١ - كتاب الوحي ، ٦ - باب حدثنا أبو اليمان الحكم بن

نافع ، حديث رقم ٧ ، عن أبي سفيان بن حرب .

ابتلى هذا النبي بالسراء والضراء فلم تتغير أخلاقه ، وكان نموذج الكمال في سمة بيت الملك والجلال ، وموضع الثقة في ضيق قبر السجن وعشرة الأسافل التي تتغير بها الأخلاق ، وتنسى بها أصول الأعراق ، وتنزل الكامل من عروش الفضيلة إلى أسفل مقاعد الرذيلة ، ومن أوج الكمال إلى حضيض النقص !

وهذه قصة يوسف - الذي تربى في مصر ونشأ فيها ولم تهجه زخارف تلك المدنية إلى الرذيلة - جاءت عبرة للناس كافة وإلى المصريين خاصة ! بهذه الأخلاق اعطى يوسف عرش العظمة والجلال فساس مصر بعد أن كان مسوساً ، وملك بعد أن كان مملوكاً ليس الجزاء على الأخلاق والكمال خاصاً بالآخرة ، بل في الدارين ^(١) : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

هذه هي الأخلاق الفاضلة ، ذكرت في التزويل نموذجاً ، في غضون هذه السيرة ، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ كما يجمد المفسر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة . وهذا غييض من فيض من حكم هذه القصة ، وبها نفهم ما ذكر في أولها ^(٢) (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ) دع قول الجاهلين ، وفهم المتنسكين ، وتجاوز خلط المؤرخين ، واختلافهم ، واصنع إلى ما في هذه القصة من هيئة تربية الحكام والأمراء ، كما أمرنا سابقاً ، ولتزدك بياناً !

قال علماء الأخلاق والحكماء : لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين ، ورجال أعمال قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروط معلومة ، وأخلاق ممهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبياً فله أربعمون خصلة ذكروها . كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته . وإن كان رئيساً فاضلاً

(١) [١٢ / يوسف / ٥٦ و ٥٧] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .

لمدينة فاضلة ، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها . وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين . ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذة عقلاء الأمم هدىً لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال ، إذ قد حاز الملك والنبوة ! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانتقامها ، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولندكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتسكون ذكري لمن يتفكر في القرآن ، وتنميهاً للمتعلمين - العاشقين للفضائل - على تفاسير الكتاب العظيم ، وحباً في نظرهم في القرآن ، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على بال من سمعه للتغنى به ومجرد اللهو واللعب !
أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة :

١ - العفة عن الشهوات ، ليضبط نفسه وتوافر قوته النفسية (كَدَّالِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (١) .

٢ - الحلم عند الغضب ، ليضبط نفسه (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ) (٢) .

٣ - وضع اللبن في موضعه ، والشدة في موضعها (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَئْتُمُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ، أَأَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَّا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) (٣) ، والصدر اللين والمجز للشدة .

٤ - ثقته بنفسه (اجْمَلِدْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (٤) .

٥ - قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون ، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَمَرَقَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) (٥) .

(١) [١٢ / يوسف / ٢٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٦٠ و ٥٩] . (٤) [١٢ / يوسف / ٥٥] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٥٨] .

٦ - جودة المصوِّرة والقوة الخيِّلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح (إِنَّ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)^(١) .

٧ - استعداده للعلم ، وحبّه له ، وتمكّنه منه (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُنْشِرَكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)^(٢) ، (وَكَلَّمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)^(٣) ، (رَبُّ قَدْ ءَانَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)^(٤) .

٨ - شفقتّه على الضمفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه . فخطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال : (يَا صَاحِبِي السُّجْنِ ...)^(٥) الآية ، وحدثهما في أمور دينهما وديناهما ، فالأول بقوله : (لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ)^(٦) ، والثاني بقوله : (إِنَّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...)^(٧) الآية ، وشهدا له بقولهما : (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)^(٨) .

٩ - العفو مع القدرة (فَأَلَّا تَتَّيَّبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ ، يُغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)^(٩) .

١٠ - إكرام المشيرة (وَاتُّونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)^(١٠) .

١١ - قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك ، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي

- (١) [١٢ / يوسف / ٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣٨] .
 (٣) [١٢ / يوسف / ٢٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠١] .
 (٥) [١٢ / يوسف / ٣٩] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٧] .
 (٧) [١٢ / يوسف / ٣٧] . (٨) [١٢ / يوسف / ٣٦] .
 (٩) [١٢ / يوسف / ٩٢] . (١٠) [١٢ / يوسف / ٩٣] .

والرعية والسوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة (فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)^(١) .

١٢ - حسن التدبير (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ ...)^(٢) الآية .

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك ، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان (وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْمَعُوا بِيضَاعَهُمْ ...)^(٣) الآية ، ودير الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه (قَبْدًا بِأَوْعِيَّتِهِمْ ...)^(٤) الآية ، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعاداتهم ، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم ، فيسوسونهم بدينهم وعاداتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعا لما رسمته الشريعة الفراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام ، وذلك أنه أمر أتباعه أن يسألوهم (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ)^(٥) الآية ، فكانت شريعة بنى يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع ، فعاملهم بما هم عليه ، ولذلك يقول الله تعالى : (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ، نَزِيعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٦) ، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم . وهذه - وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر - فهي أم السياسة ورأس علوم العمران ، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء !

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم ! وليت شمري كيف يقول الله بعدها (نَزِيعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)^(٧) ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع

(١) [١٢ / يوسف / ٥٤] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٧] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٦٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

(٥) [١٢ / يوسف / ٧٤] . (٦) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

(٧) [١٢ / يوسف / ٧٦] .

وضوحها وبساطتها لدوى النظر السطحيّ والبُله الغفَل ، بما أعطاه هذا الجلال والإعظام ومدح العلم ! فحيا الله العلم وأدام دولته . !

ومن العجيب الغريب تدير هذه الحيلة بإخفاء الصواع ، ثم نظر أمتعتهم جميعاً (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) ^(١) . وهذه : - وإيم الله - هي بعينها ما يصنعه ملوك الأرض قاطبة اليوم من السياسات والتلطف في الأمور الخفية ، وإلباسها ألبسة مختلفة لسياسة بلادهم ، وطلباً لحصول المقاصد النافعة ، ودخولاً للبيوت من أبوابها ؛ ولكن بينهم وبين هذا النبيّ بون بعيد . . . ! فانظر كيف تعطى هذه القصة هذه الأمور العجيبة !

لعمري ! إن من طالع ما أمليناه بإيمان عن هذه القصة يتخيل عند تلاوتها أنه مشاهد أعمال الأمم الحاضرة والفاخرة ! وكأنما طالع آراء أهل المدينة الفاضلة ، وعرف الحكماء وسواس الأمم ، وشاهد جمال العلم والأدب والحكمة والموعظة الحسنة ، حتى يعلم علم اليقين كيف قال الله في أول السورة (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ) ^(٢) ، ويقول في آخرها : (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) ^(٣) ويقول : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) ^(٤) ثم ذكر أن الإنسان لا ينبغي له أن ييأس من روح الله فقال : (حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ . . .) ^(٥) الآية . ثم أفاد أن المقصود هو العبر والنظر لتأثير القصص ونعماتها ، لا مجرد تفسيرها ؛ إذ مجرد التفسير أمر بسيط يقنع به البسطاء . وإنما المقصد هو الاتعاظ والاعتبار فقال : (لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ . . .) ^(٦) الآية . وهذه ترشدك - إن كنت من ذوى الهمة العالمة - أن

- (١) [١٢ / يوسف / ٧٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٣] .
 (٣) [١٢ / يوسف / ١٠٢] . (٤) [١٢ / يوسف / ١٠٨] .
 (٥) [١٢ / يوسف / ١١٠] . (٦) [١٢ / يوسف / ١١١] .

تصبر نفسك مع الذين يتعلمون أمداً طويلاً ، ولا تمجّل بالرأسه حتى يبلغ الكتاب أجله ،
وتنال حظاً وافراً من الأخلاق والعلوم . فلا بأس بالوظائف وتنع الأمة مع دوام المثابرة على
العلم والاستزادة منه ! فلقد صبر هذا النبي عليه السلام أياماً وأياماً ، ولبس للحوادث أنواعاً
وأثواباً ، حتى إذا غلب اليأس جاء الفرج والرفعة !

فتأمل ! كيف كانت هذه السورة يقرأها القارئون ، وبسمها الجاهلون وهم عن آياتها
معرضون ! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنوا أن هذا هو جمال القرآن ، فقالوا للقارىء : سبحان
من أعطاك ! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة ، أو مجرد التفسير ومعرفة
القصة ، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها ! فقبّح الجهل ! ! يترك الرجل أعمى وإن لبس
الحلل وارتدى ثياب الفخار الكاذب والسراب الخداع . . كم للإنسان من آيات وعبر في
السموات والأرض فيمرض عنها ! خلقت لنا الأبصار والأسماع والعقول لننظر ماذا في
السموات والأرض مما ذرأ المبدع في الكون ، وتلا القرآن - وهو كلام مبدع الكون
- وتلطف في تصوير المعاني ، وألبسها أجمل لباس ، فأعرض العقلاء فضلاً عن العامة ! فما
للعامة لا يتعلمون ؟ وما لذوى البصائر لا ينصحون ولا يبينون ؟ وما للناس لا يكادون
يفقهون . ؟

ذكرنا نموذجاً عن هذه السورة استنشاقاً لهم العقلاء ، وحثاً لمن لهم ذكاء وفضن وعقول
راجحة - على الرجوع إلى كتابهم ونظرهم فيه ، وإزالة لشبه من ارتاب في هذه القصص
فأعرض ! وجلي أن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة ، وفي كل واحدة منها
ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف لونها ! أين من يفقه هذا ممن يقف مع ألفاظها وهم
عن آياتها معرضون ؟ ولا عجب فإن نفوس الأسافل تأخذ الحكمة فترجمها من أفق سمائها
إلى أرض ضعتها ، كما يصير الماء في شجرة الحنظل مرّاً . فيقصدها هذا للنتجات ، وذلك لقصة
بسيطة ، وآخر تسلية وتضييعاً للزمن ، وآخر يقف عند الألفاظ وإعرابها وصرفها وبلغتها ،

ولكن هذا أرق مما قبله - فقد سار في الطريق وهي الألفاظ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدت تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه! وآخرون يسممون الآيات فيمرضونها على التاريخ، والمؤرخون مختلفون كما قدمنا. وما مثل هؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتي آلة بخارية ليسقي بها الحرت من النهر، فجلس بجانبها وترك استعمالها وأخذ يتفكر: من أين هذا الحديد؟ ولم يجلب الماء؟ وإلى أي مسافة يرتفع، وما الملة فيه، ومن أين يأتي الفحم الحجري، وفي أي الطرق يسير إلى أن يصل إلينا؟. فيمر عليه شهر وشهران فيدبل زرعه وتبور أرضه. ! ذلك مثل من يقرأ القرآن ويحمل جمل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب! اللهم إلا قدرا يسيراً للفهم! وهذا - لعمر الله - انتكاس على الرأس، واتخاذ الوسيلة مقصداً، كمثل من أراد الحج فيجمل همته إعداد الذخائر سنين فاخترقته المنون وفارق الحياة ولم يحج! ذلك مثلهم. !! انتهى.

المبحث الثاني

احتج من جوز المعصية على الأنبياء - وهم الكرامية والباقلاني - بما جرى من إخوة يوسف وبيمهم أخاهم وكذبهم لأبيهم، وبما وقع من يوسف نفسه من أخذه أخاه وإيخاشه أباه.

قال الإمام أبو محمد بن حزم رحمه الله في (الملل والنحل):

ما احتجوا به لا حجة فيه: لأن إخوة يوسف، عليه السلام، لم يكونوا أنبياء؛ ولا جاء قط - في أنهم أنبياء - نصٌّ لا من قرآن، ولا من سنة صحيحة، ولا من إجماع، ولا من قول أحد من الصحابة رضي الله عنهم؛ فأما يوسف عليه السلام فرسول الله بنص القرآن، قال عز وجل^(١): (وَلَقَدْ جَاءَ كُمْ بُيُوتٌ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَ كُمْ

(١) [٤٠ / غافر / ٣٤].

به . . . إلى قوله - مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا) وأما إخوته فأفعالهم تشهد بأنهم لم يكونوا متورعين عن العظائم ، فكيف أن يكونوا أنبياء ! ولكن الرسولين - أباهم وأخاهم - قد استغفرا لهم وأسقطا الثريب عنهم !

وبرهان ما ذكرنا - من كذب من يزعم أنهم كانوا أنبياء - قول الله تعالى حاكيا عن الرسول أخيهام أنه قال لهم : (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا)^(١) ولا يجوز البتة أن يقوله لنبي من الأنبياء ؛ نعم ، ولا لقوم صالحين ! ؛ إذ توقيف الأنبياء فرض على جميع الناس ، لأن الصالحين ليسوا شرًّا مكانًا ! وقد عاق ابن نوح أباه بأكثر مما عاق به إخوة يوسف أباهم ، إلا أن إخوة يوسف لم يكفروا . ولا يحل لمسلم أن يدخل في الأنبياء من لم يأت نص ولا إجماع أو نقل كافة بصحة نبوته ! ولا فرق بين التصديق بنبوة من ليس نبيًّا ، وبين التكذيب بنبوة من سحت نبوته منهم ! فإن ذكروا في ذلك ما روى عن بعض الصحابة رضى الله عنهم وهو زيد بن أرقم : (إنما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ لأنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ، وأولاد الأنبياء أنبياء !) فهذه غفلة شديدة وزلة عالم ، من وجوه :

أولها : أنه دعوى لا دلائل على سحتها !

وثانيها - أنه لو كان ما ذكره لأمكن أن ينفأ إبراهيم في المهدي كما نبي عيسى عليه السلام ، وكما أوتى يحيى الحكم صبياً ؛ فملى هذا القول لعل إبراهيم كان نبيًّا وقد عاش عامين غير شهرين ، وحاشا لله من هذا !..

وثالثها : أن ولد نوح كان كافراً بنص القرآن: عمل عملاً غير صالح . فلو كان أولاد الأنبياء أنبياء لكان هذا الكافر المسخوط عليه نبيًّا ، وحاشا لله من هذا !..

ورابعها : لو كان ذلك ، لوجب ولا بد أن تكون اليهود كلهم أنبياء إلى اليوم ، بل جميع أهل الأرض أنبياء ، لأنه يلزم أن يكون الكل من ولد آدم لصلبه أنبياء ، لأن

(١) [١٢ / يوسف / ٧٧] .

أباهم نبيّ ، وأولاد أولادهم أنبياء أيضاً لأن آباءهم أنبياء وهم أولاد أنبياء ، وهكذا . . . أبداً حتى يبلغ الأمر إلينا ! وفي هذا من الكفر لمن قامت عليه الحجّة وثبت عليه - مالا خفاء به .
وبالله تعالى التوفيق . . . !

ثم قال ابن حزم .

وذكروا - يعني الكراميّة ومن وافقهم - أيضاً أخذ يوسف عليه السلام أخاه ، وإيحاشه أباه عليه السلام منه ، وأنه أقام مدة يقدر فيها على أن يعرف أباه خبره وهو يعلم ما يقامى به من الوجد عليه ، فلم يفعل وليس بينه وبينه إلا عشر ليال ! وبإدخاله صواع الملك في وعاء أخيه ولم يعلم بذلك سائر إخوته ، ثم أمر من هتف ^(١) (أَيُّهَا الْعَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) وهم لم يسرقوا شيئاً ، ويقول الله تعالى ^(٢) (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) ؛ وبخدمته لفرعون ، وبقوله الذي كان معه في السجن ^(٣) (إِذْ كُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ)

قال ابن حزم : وكل هذا لا حجة لهم في شيء منه ، ونحن نبين ذلك بحول الله تعالى وقوته ، فنقول وبالله تعالى نتأيد : أما أخذه وإيحاشه أباه منه فلا شك في أن ذلك ليرفق بأخيه وليعود إخوته إليه ، ولعلمهم لو مضوا بأخيه لم يعودوا إليه وهم في مملكة أخرى ، وحيث لا طاعة ليوسف عليه السلام ولا لملك مصر هنالك ، وليكون ذلك سبباً لاجتماعه وجمع شمل جميعهم ! ولا سبب إلى أن يظن برسول الله يوسف عليه السلام الذي أوتي العلم والمعرفة بالتأويل - إلا أحسن الوجوه . وليس مع من خالفنا نصّاً بخلاف ما ذكرنا . ولا يحل أن يظن بمسلمٍ فاضل عقوق أبيه ، فكيف برسول الله صلوات الله عليه ؛ وأما ظنهم - أنه أقام مدة يقدر فيها على تعريف أبيه خبره ولم يفعل - فهذا جهل شديد ممن ظن هذا لأن يعقوب في أرض كنعان من عمل فلسطين ، في قوم رحّالين خصاصين في لسان

(١) [١٢ / يوسف / ٧٠] .

(٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

آخر وطاعة أخرى ودين آخر وأمة أخرى ! فلم يكن عند يوسف عليه السلام ، علم بعد فراقه أباه بما فعل ، ولا حتى هو أو ميت ، أكثر من وعد الله تعالى بأن ينجيهم بفعلهم به ، ولا وجد أحداً يثق به ، فيرسل إليه ، للاختلاف الذي ذكرنا . وإنما يستسهل هذا اليوم من يرى أرض الشام ومصر لأميرٍ واحد وملة واحدة ، ولسانا واحداً وأمة واحدة ، والطريق سابل ، والتجار ذاهبون وراجعون ، والفاق سائرة ومقبلة ، والبرود ناهضة وراجعة ، فظن كل بيضاء شحمة^(١) ولم يكن الأمر حينئذٍ كذلك ، ولكن كما قدمنا ! ودليل ذلك أنه حين أمكنه لم يؤخره ، واستجلب أباه وأهله أجمعين عند ضرورة الناس إليه ، وانقيادهم له للجوع الذي كان عمّ الأرض ، وامتنيازهم عنده ، فانتظر وعد ربه تعالى الذي وعده حين القوه في الجب فأتوه ضارعين راغبين كما وعده تعالى في رؤياه قبل أن يأتوه ! وأما قول يوسف لإخوته « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » وهم لم يسرقوا الصواع ، بل هو الذي كان قد أدخله في وعاء أخيه دونهم ، فقد صدق عليه السلام لأنهم سرقوه من أبيه وباعوه ، ولم يقل عليه السلام : إنكم سرقتم الصواع ، وإنما قال^(٢) : (نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ) وهو في ذلك صادق لأنه كان غير واجد له فكان فاقداً له بلا شك ! وأما خدمته عليه السلام لفرعون فإنما خدمه تقيّة وفي حقّ الاستنقاذ الله تعالى بحسن تدييره ، ولعل الملك أو بعض خواصه قد آمن به إلا أن خدمته له على كل حال حسنة وفعل خير ، وتوصل إلى الاجتماع بأبيه وإلى العدل وإلى حياة النفوس ؛ إذ لم يقدر على المغالبة ولا أمكنه غير ذلك ، ولا مريّة في أن ذلك كان مباحاً في شريعة يوسف عليه السلام بخلاف شريعتنا ، قال الله تعالى^(٣) :

(لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ) . وأما سجود أبويه فلم يكن ذلك محظوراً في شريعتهم بل كان فعلاً حسناً ، وتحقيق رؤياه الصادق من الله تعالى . ولعل ذلك السجود

(١) أصل المثل (ما كلّ بيضاء شحمةً ، ولا كل سوداء تمرّة) انظر : أمثال الميداني ،

الصفحة ١٥٦ من الجزء الثاني (الطبعة الخيرية عام ١٣١٠ هـ)

(٢) [١٢ / يوسف / ٧٢] . [٥ / المائدة / ٤٨] .

كان تحية كسجود الملائكة لآدم عليه السلام . إلا أن الذي لا شك فيه أنه لم يكن سجد عباداً ولا تذلل وإما كان سجد كرامة فقط بلا شك ! وأما قوله عليه السلام للذي كان معه في السجن^(١) (اذْ كَرَّيْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) فما علمنا الرغبة في الانطلاق من السجن محظورة على أحد ! وليس في قوله ذلك دليل على أنه أغفل الدعاء إلى الله عز وجل . لكنه رغب هذا الذي كان معه في السجن في فعل الخير وحضه عليه ! وهذا فرض من وجهين : أحدهما وجوب السعى في كسف الظلم عنه ، والثاني : دعاؤه إلى الخير والحسنات . وأما قوله تعالى^(٢) (فَأَسَاءَ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) فالضمير الذي في (أنساه) وهو الهاء راجع إلى الفتى الذي كان معه في السجن ، أي : أن الشيطان أنساه أن يذكر ربه أمر يوسف عليه السلام ؛ ويحتمل أيضاً أن يكون أنساه الشيطان ذكر الله تعالى ، ولو ذكر الله عز وجل لذكر حاجة يوسف عليه السلام ، وبرهان ذلك قول الله عز وجل^(٣) (وَادَّكَرَّ بَعْدَ أُمَّةٍ) فصحح يقيناً أن المذكور بعد أمة هو الذي أنساه الشيطان ذكر ربه حتى تذكر . وحتى لو صح أن الضمير من (أنساه) راجع إلى يوسف عليه السلام لما كان في ذلك نقص ولا ذنب . إذ ما كان بالنسيان فلا يبعد عن الأنبياء أو أئمة قولهم^(٤) (هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فليس كما ظن من لم يعمن النظر حتى قال من المتأخرين من قال : (إنه قدمها مقعد الرجل من المرأة) ومعاذ الله من هذا أن يظن رجل من صالحى المسلمين أو مستورهم ! فكيف برسول الله ﷺ !! إِنْ قِيلَ : إن هذا قد روى عن ابن عباس رضى الله عنه من طريق جيدة الإسناد ؛ قلنا : نعم ! ولا حجة في قول أحدٍ إلا فيما صحَّ عن رسول الله ﷺ فقط ! والوهم في تلك الرواية إنما هي بلا شك عمن دون ابن عباس ، أو لعل ابن عباس لم يقطع بذلك ؛ إذ إنما أخذه عن لا يدري من هو ، ولا شك في أنه شىء سمعه فذكره ؛ لأنه رضى الله عنه لم يحضر ذلك ولا ذكره عن رسول الله ، ومحال أن يقطع ابن عباس بما لا علم له به ! لكن معنى الآية لا يمدو أحد وجهين : إما أنه هم بالإيقاع بها وضربها :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٢] . (٢) [١٢ / يوسف / ٤٢] .

(٣) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٤) [٢٢ / يوسف / ٢٤] .

كما قال تعالى^(١) (وَكَمْتَ كُلُّ أُمَّةٍ بِرِسْوَالِهِمْ لِمَا خَدُوهُ) وكما يقول القائل: لقد همت بك، لكنه عليه السلام امتنع من ذلك ببرهان أراه الله إياه استغنى به عن ضربها. وعلم أن الفرار أجدى عليه وأظهر لبراءته ، على ما ظهر بعد ذلك من حكم الشاهد بأمر قدّ القميص . والوجه الثانى : أن الكلام تمّ عند قوله (وَاقْدُمْتُ هَمَّتْ بِهِ) ثم ابتداء تعالى خبراً آخر فقال (وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وهذا ظاهر الآية بلا تكلف تأويل . وبهذا نقول . وبرهان ربه هاهنا هو النبوة وعصمة الله عزّ وجلّ إياه . ولولا البرهان لكان يهيم بالفاحشة ، وهذا لاشك فيه ! ولعلّ من ينسب هذا إلى النبيّ المقدس يوسف ، ينزه نفسه الرذلة عن مثل هذا المقام فيهلك . وقد خشى النبيّ ﷺ الهلاك على من ظن به ذلك الظن ، إذ قال للأَنْصَارِيِّينَ حين لقيهما: هذه صفة^(٢) ! ومن الباطل الممتنع أن يظن ظان أن يوسف عليه السلام همّ بالزنى وهو يسمع قول الله تعالى^(٣) (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) ! فنسأل من خالفنا عن الهمّ بالزنى : سوء هو أم غير سوء ؟ فلا بدّ أنه سوء ، ولو قال : إنه ليس بسوء لعاند الإجماع . فإذا هو سوء ، وقد صرف عنه السوء ، فقد صرف عنه الهمّ بيقين ! وأيضاً فإنها قالت^(٤) (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا) وأنكر هو ذلك فشهد الصادق المصدق^(٥) (إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) فصح أنها كذبت بنص القرآن ، وإذا كذبت بنص القرآن فما أراد بها قط سوءاً ، فما همّ بالزنى قط . ولو أراد بها الزنى لكانت من الصادقين ، وهذا بين جدّاً ! وكذلك قوله تعالى عنه أنه قال^(٦) (وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) فصح عنه أنه قط لم يصب إليها .

انتهى كلام ابن حزم عليه الرحمة والرضوان . وإنا نقلت كلامه برمته لأنه كما قيل :

(وما محاسن شيء كلّها حسن .. ١١)

(١) [٤٠ / غافر / ٥] . (٢) أخرجه البخارى في ٣٣ - كتاب الاعتكاف ، ٨ -

باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد ، حديث ١٠٣١ . (٣) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

(٤) [١٢ / يوسف / ٣٥] . (٥) [١٢ / يوسف / ٢٦] . (٦) [١٢ / يوسف / ٣٣] .